
موسوعة
الحضارة
المسيحية


نوبليس

جـورج فيليب الفغالــي
عميد ركن - ماجستير في التاريخ

موسوعة
الحضارة المسيحية

المجلّد التاسع

صراع المسيحية مع الشرق الإسلامي

دار نوبِليس

اسم الموسوعة:	موسوعة الحضارة المسيحية
اسم الكتـــاب:	صراع المسيحية مع الشرق الإسلامي
اسم المؤلــف:	جورج فيليب الفغالي - عميد ركن
قيـاس الكتـاب:	17 × 24
عدد الصفحات:	176
عدد صفحات الموسوعة:	4304
مكـان النشــر:	بيروت
دار النشر والتوزيـــع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	961 (1) 58 34 75
هاتــف:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
صندوق بريـد:	70 69 16 بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولـى:	2010

EAN 9786144030653

ISBN 978-614-403-065-3

القسم الأول

المسيحية في عنفوانها

(1350 - 1096)



المقدمة

تعرّض الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر لحركة عسكرية من قبل الغرب الأوروبي، لم يشهد لها مثيلاً في العصور الوسطى، فاتخذت من الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأهداف. ومما لا شك فيه أن مراكز الحضارة استقرّت قبل نشوب الحروب الصليبية في العالم الإسلامي وبيزنطية، بينما غلب على دول أوروبا النظام الإقطاعي. فلما ركدت ريح الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر، اختفى في أوروبا ما سبق أن اشتهرت به في مستهلّ الحركة الصليبية من الروح الدينية والتفكير في الحياة الأخرى، وسيطرت عليها العلمانية والدنيوية، فانصرفت إلى دراسة القانون والفلسفة.

وكان النظام الإقطاعي في أوروبا يدعو للتوسّع والسيطرة والقتال. فلم تجدِ نفعاً فكرة سلام الله وهدنة الله.

فما لجأت إليه الكنيسة من فرض قيود على المبارزات الفردية لم يؤدّ إلى نتيجة إيجابية، ولذا حرصت الكنيسة على تشجيع الفرسان على قتال غير المسيحيين، فيشبع الفارس بذلك نزعته الحربية، وينال الخلاص والتطهير من الذنوب، وهو ما يرضي الجانب الروحي من طبيعته. يضاف إلى ذلك ما حدث في غرب أوروبا من ازدياد عدد السكان، وتقاصر الأراضي عن سدّ حاجة الإقطاعيين، فكان لا بدّ من السعي للحصول على إقطاعات جديدة، بالتوسّع شرقاً. وهذا يفسّر اشتراك أمراء كبار أمثال بودوان وبوهمند وتانكرد في الحملات الفرنجية، إذ هيّأت لهم الفرصة لإقامة إمارات في الشرق الإسلامي والعربي. إن نجاح الصليبيين في أول الأمر، لم يرجع فحسب إلى كثرة عددهم، وإلى ما تلقّوه من مساعدات من الغرب الأوروبي المسيحي ومن الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرّق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن، وإلى ما اتبعه القادة الفرنج من أساليب الغدر والخيانة، واستخدام العملاء من السكان الوطنيين في تحقيق أغراضهم. وإلى ما أجروه من مذابح في سكّان البلاد التي استولوا عليها برغم ما بذلوه لهم من الأمان، الأمر الذي أدّى إلى خروج فكرة الجهاد إلى حيّز التنفيذ. واشتدّت ثائرة المسلمين، وتهيّأ لهم القادة الذين مضوا بهم إلى طريق النصر النهائي وإخراج الفرنجة من الشرق العربي بعد حوالي مئتي سنة من تجذّرهم فيه.

ومما لا شكّ فيه تاريخياً، أننا نجد في إطلالة سريعة على الوضع السياسي في بلاد الشام والمشرق العربي، في نهاية القرن الحادي عشر، القرن الذي شهد وصول الغزاة الفرنجة إلى مشارف بلاد الشام، أن جميع البلدان كانت تعيش في حال من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية. فقد كان هناك خلافتان: الواحدة في بغداد والثانية في القاهرة، وكانتا في صراع دائم، ونزاع عقائدي دموي مستمر، كما أن الأحوال

الداخلية في كلّ من هاتين الخلافتين كانت جدّ سيّئة حيث كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي والاستغلال والتسلّط على سدّة الحكم.

كانت غالبية سكان بلاد الشام في القرن الحادي عشر من الشيعة ومعظمهم من أتباع المذهب الاثني عشري، وكان بين الشيعة بعضاً من الإسماعيلية في الشمال والجنوب وبعضاً من الدروز في شمالي غربي حلب ووادي التيم في لبنان. وكان هناك النصيرية في جبل بهراء - العلويون الآن - وكان السنّة يقطنون في المدن الكبرى، وكانوا في جنوب بلاد الشام أكثر منهم في الشمال. وكالعادة كان النزاع يقع حاداً بين الجماعات الإسلامية هذه، وكان هذا النزاع من الأساليب التي زادت تجزؤ بلاد الشام عمقاً وقوّته ضعفاً. وقد وُجدت في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود. وكان النصارى منتشرين في ريف دمشق ومدنه الكبرى وفي الجبال اللبنانية الشمالية وكانوا كثرة مؤثّرة في شمالي البلاد وغربها، وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل أرمني. ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائماً سليمة، بل غالباً ما توفّرت أسباب الخلاف. إنما كانت الحرية الدينية على العموم متوفّرة، وكانت أحوال النصارى المعيشية جيّدة، وكانت معظم أعمال الإدارة في أيديهم. ويمكننا أن نعتبر القرن الحادي عشر، عصراً ذهبياً بالنسبة لأوضاع مسيحيي بلاد الشام، لكنّ قدوم الفرنج إلى هناك أدّى إلى بعض ردات الفعل العنيفة ضد النصارى الشاميين.

وكان هناك يقظة سنّية عامة، وتراجع شيعي واضح، وقد زاد في سرعة هذا التفسير ما شهدته أرض خراسان وما وراء النهر من أحداث جسام تجلّت بتأسيس السلطنة السلجوقية، وباجتياح قبائل الغزّ التركمان، اجتياحاً مدمّراً شمال الشام والجزيرة وآسيا الصغرى، بعد اجتياح خراسان والعراق.

ومعروف أنّه عندما ترسّخت أركان السلطة السلجوقية في بلاد الشام، ترسّخت قواعد الإقطاع العسكري، ورافق ذلك نشوء الإقطاع الديني من رجالات الأشراف وأصحاب الوظائف الدينية، وشغل هذان الاقطاعان أهم الأدوار في تاريخ البلاد منذ ذلك الحين وحتى وقت قريب جداً من دخول الفرنج.

لقد بلغت الامبراطورية السلجوقية غاية اتساعها وعظمتها زمن ملكشاه، فقد دانت له بالإضافة إلى خراسان والعراق: بلاد الشام مع مناطق من آسيا الصغرى. وفي زمنه استطاع التركمان الانسياح في بلاد الشام، فتمكّنوا من التدمير والخراب فيها بشكل مريع جداً، مما كان له أكبر الآثار في نجاح الصليبيين الفرنج عندما وصلوا إلى مشارف بلاد الشام عام 1098. لقد كانت هذه البلاد في حال من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير له، «وكانت هذه البلاد مثل رقعة الشطرنج فيها مربّعات عديدة، على كلّ مربّع دمية لها اسمها وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى التي كانت بغالبيتها تركمانية الأصل، غريبة المولد والنشأة، لا ارتباط لها بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته. وكانت كلّها تتصارع في سبيل السّلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط دونما رادع واعتبار». لقد أسّس السلاجقة إمبراطورية مترامية الأطراف، وكانوا مسلمين سنّة، وقد احتفظوا بالخلفاء بمثابة حكّام اسميين. كما أن توسّع سلطنتهم على حساب الشيعة، دعّم من مركز الخليفة العباسي السنّي. وحاول بعض الخلفاء استرداد كامل سلطانهم فصارعوا السلاطين ففقدوا حياتهم. وهذه الصراعات السلجوقية ـ العباسية بدّدت قوى العراق والمشرق العربي وشغلت حكّام وجيوش تلك البلدان وحتى شعوبها عن أحداث الحملات الصليبية وعن المساهمة الإيجابية فيها وهزمتهم في بادئ الأمر عن الجهاد ضد الفرنجة وعرّضتهم للمؤامرات المشرقية.

الفصل الأول

أوروبا المسيحية تتحضّر لاجتياح الشرق الإسلامي

(1095 -1098)

1- أهل الكتاب والجزية والخراج

11- توطئة

قبل المسيحيون في الشرق عن طيب خاطر سيطرة المسلمين. فلم يكن ثمّة إلّا احتمال ضئيل في أن تنهض بيزنطية من جديد مثلما حدث زمن الحروب الفارسية لإنقاذ الأماكن المقدّسة. لقد أنشأ العرب أسطولاً بحرياً سيطر على البحار لمدّة ثلاثة قرون من الزمن، اتّخذ قاعدته ميناء الإسكندرية. أما في البر فقد احتفظوا بالمبادرة الهجومية طوال هذه المدّة.

يقول البطريرك اليعقوبي بأنطاكية، ميخائيل السرياني، إن تبديل الحكّام جلب إليهم الراحة والسرور «إن الله المنقذ القهّار أثار في الجنوب أبناء

إسماعيل لإنقاذنا من أيدي الرومان»[1]. **وبالرغم من الجزية التي فرضها المسلمون على النصارى، أهل الكتاب، فقد كانت الضرائب أقلّ بكثير عمّا كان معروفاً زمن البيزنطيين.**

12- الجزية والخراج

باتت العهود التي أُعطيت لأهل الكتاب، أشبه بإطار عام لمنظومات قانونية تحدّد حقوق أهل الذمّة. **في البداية نُظّمت العلاقات بين الفاتحين العرب والنصارى في البلاد المفتوحة بمقتضى آية قرآنية وعقد الصلح الذي أبرمه النبي محمد في العام 631 مع أهالي نجران.** والآية القرآنية هي التي تأمر المسلمين بمقاتلة أهل الكتاب الذين لا يمارسون الدين الحقيقي؟؟، (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). أما عقد الصلح فقد يكفل للنصارى جوار الله وذمّة رسوله لقاء شيء معلوم من المؤن والخدمات. وإن عقود الصلح التي أبرمها القادة المسلمون لسكان المدن التي فتحت صلحاً، إنما تستلهم هذين العنصرين. **ففي هذه العقود جميعها، التي حفظها لنا المؤرّخون العرب، نجد الشروط نفسها تقريباً: لقاء دفع الجزية، وتقديم خدمات متنوعة للجيش المسلم، وبعض القيود على ممارسة الطقوس الدينية المسيحية، يكفل القائد المسلم لأهل المدينة التي تعقد صلحاً حماية أنفسهم وأهلهم وذراريهم وأموالهم**[2]. وهو ما سُمِّيَ بـ«الذمّة»، وهذا اللفظ الذي يرد مرتين في القرآن، ويظهر أيضاً في صلح نجران يعني، في آنٍ معاً، العهد والعقد والأمان الذي يكفله هذا العقد. والمستفيد من هذا العقد يُسمّى

(1) رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، عرّبه الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ج1، ص 41.

Michel, le Syrien, Chronique, 4 Volumes.

(2) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ط1، ص 462- 463.

«ذمياً»، والنصارى يُسمّون «أهل الذمّة». لقاء هذه الحقوق كان على النصارى واجبات وأهمها تأدية «الجزية». وهي ليست كالصدقة أو الضريبة العادية التي يدفعها المسلمون. فالجزية، لغةً، تتحمل معنى الجزاء ويرتبط ذكرها في القرآن بالصفار، وهذا يفسّر اعتراض عدد من النصارى العرب، الذين لم يعتنقوا دين بني قومهم الجديد. ومن المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب تجاوب مع اعتراض بني تغلب المسيحيين، آخذاً في الحسبان عددهم ومكانتهم بين القبائل العربية، فأعفاهم منها.

كانت الجزية نوعاً من الضريبة الشخصية، الأمر الذي جعلها تدعى لاحقاً «جزية الرؤوس». وإضافةً إليها، جاء في المصادر العربية ذكر «الخراج» بالتلازم معها تارة أو بالاستقلال عنها تارة أخرى. و«الخراج» نوع من الضريبة العقارية تؤخذ من أهل الذمة، الذين لا تدخل أراضيهم في حكم الفيء الذي يصرف في سبيل الجماعة الإسلامية. وقد تفاوتت الجزية والخراج بين الحلم والشدّة، نسبة إلى طباع الحكّام المختلفين.

2- الحجّ إلى المقدّسات المسيحية في الشرق (700- 1100)

21- توطئة

مما لا شك فيه أن الرغبة في الحجّ، هي من الأمور المتأصّلة في الطبيعة البشرية. فالإنسان مفطور على الذهاب إلى الأماكن التي يرى أنها تذكّره بأولئك الذين يجلّهم ويبجّلهم، مما يجعله يشعر بما يربطه بهم من صلة روحية وإعراباً عملياً على ما يكنّه من ولاء. فالأنبياء في الكون لهم مزاراتهم وكذلك الأراضي التي عاشوا عليها والأماكن التي انتقلوا منها وإليها وهي تعني الكثير للمؤمنين، خاصة تلك الأمكنة التي اعتقدوا أن الله بارك بها الأرض وقدّسها. لذلك نرى المؤمنين يأتون من أماكن بعيدة لزيارتها والتبرّك بمياهها وترابها ويتخيّلون حياة وتحرك هذا النبي أو ذاك الوليّ، فيتبرّكون من متروكاتهم

إذا وُجدت أو في المكان الذي عاشوا في كنفه، لاكتساب الفضائل الروحية والتعبّد والصلاة والابتهال.

22- الحجّاج المسيحيون الأوائل

في الأيام الأولى للمسيحية، كان الحجّ أمراً نادراً. فالمسيحيون كانوا ينظرون إلى تأليه السيّد المسيح وإلى عالميته، لا إلى بشريّته. والسلطة الرومانية الحاكمة آنذاك، كانت تدين بالوثنية وتحارب هذه البدعة «المسيحية»، وترسل من اعتنقها إلى ملاعب وأشداق الحيوانات المفترسة، لذلك لم يتشجّع هؤلاء بالذهاب إلى فلسطين للتبرّك من الأماكن التي كانوا يعتبرونها مقدّسة. فمدينة القدس التي دمّرها الإمبراطور «تيتوس» بقيت خراباً بلقعاً حتى أعاد بناءها الإمبراطور «هادريان» وأسماها إيلياء.

وكان المسيحيون الأوائل يعلمون مأساة حياة السيّد المسيح، فأولوا الموضع التي استقرّت به رفاته والمكان الذي وُلِد فيه والجبل الذي صُلِب عليه، الاحترام والتبجيل.

ولم يأتِ القرن الثالث حتى أصبحت المغارة التي وُلِد فيها السيد المسيح في بيت لحم، مكاناً معروفاً ومحدداً بدقّة من قِبل المسيحيين وصار في وسعهم أن يحجّوا إليها وإلى جبل الزيتون وإلى مكان القبر الذي دُفِن فيه وإلى الموضع الذي صعد منه إلى السماء، فأضحى من الشعائر المسيحية، زيارة هذه الأماكن المقدّسة من أجل التبرك، واكتساب الفضائل الروحية.

في هذه الأثناء اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول الكبير الديانة المسيحية وكذلك الرعية، وكان من دواعي سروره وغبطته، أن يهب القوة للديانة التي اختارها، فشيّد في بيت لحم، موضع الكهف أو المغارة التي وُلِد فيها السيّد المسيح، كنسية هي كنيسة القيامة[1]. ومنذ ذلك التاريخ راح المؤمنون يحجّون إلى تلك الأماكن،

(1) أوسابيوس، التاريخ الكنسي (بالإنكليزية)، لندن 1928، ج1، ص 185، 186.

ليعودوا إلى ديارهم بعد الزيارة، فيصفون ما رأوا وما شاهدوا أثناء سفرهم وإقامتهم.

في نهاية القرن الرابع، استقرّ في فلسطين أحد كبار آباء العالم المسيحي اللاتيني، هو القديس «جيروم». والكل يعلم كيف أنه سار على الطرقات نفسها التي سار عليها السيّد المسيح حتى وصل إلى صور وصيدا في لبنان. أما القديس أوغسطينوس والذي كان من أشدّ آباء الكنيسة روحانية في الغرب، فإنه اعتبر الحجّ، لا علاقة له بالدين المسيحي، بل وقد يكون مصدر خطر على الدين، وقد اتفق معه على ذلك آباء الكنيسة اليونانية [1].

تضاعف عدد الحجّاج بفضل تشجيع السلطات الحاكمة آنذاك في الإمبراطورية الرومانية، حتى أنه في أوائل القرن الخامس، صار في مدينة القدس وحولها نحو مائتي دير للرهبان ونزل، جرى تشييدها لاستقبال الحجّاج من أوروبا، وتكاد تكون جميعها تحت رعاية الإمبراطور [2].
وكان البعض من الحجّاج يزداد شغفاً بجمع المقدّسات الدينية، مثل صورة السيدة العذراء التي رسمها القدّيس لوقا والتي استولت عليها الإمبراطورة إيدوسيا.

23-الحجّ في القرنين الثامن والتاسع

بعد الفتوحات العربية، لم يعد التجّار السوريون يرتادون سواحل فرنسا وإيطاليا، يحملون الأواني المعدنية المزخرفة وأنباء ما يجري في المشرق. وظهرت الريبة فيمن يأتي من الغرب الأوروبي من المسافرين المسيحيين. وأضحى السفر بالغ التكاليف، شديد المشقّة. وحلّت بالعالم الأوروبي أزمات اقتصادية متتابعة، وقلّت الأموال بين أيادي الناس وأصبح الأثرياء قلّة منهم، غير أن الاتصال لم ينقطع نهائياً بين الشرق والغرب. أما الرحلة فكانت

---

(1) رنسيمان، ج1، م. س، ص 75.

(2) Cauret, A. La Palestine sous les Empereurs Grecs, Grenoble, France, 1869, p212.

تستغرق سنوات عديدة، ودونها عقبات كثيرة[1].

وعندما كان الحجّاج يعودون إلى ديارهم، كانوا يحملون معهم تقارير وافية عن أحوال بلاد الشام والمشرق من كافة النواحي، وبالغوا في تطوير أحوال الزمان وتوفّر الثروات وكثرتها، كما تمّ الإفصاح بشكل منقطع النظير عن قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجدّدت بشكل عنيف اعتباراً من نهاية القرن العاشر واستعرت بشكل أعنف في القرن الحادي عشر.

بالرغم من هذه العقبات الكأداء التي كانت تعترض الحجّاج، إن كان في الغرب أو في الشرق، بقي المؤمنون يصرّون على السفر إلى أرض ميلاد السيّد المسيح ويتبارون في زيارة الآثار الأعظم مكانة فيها **لقد صار أمر الحجّ عادة وعقيدة جديدة دخلت إلى أركان الديانة المسيحية**، لذلك لا تفاجئنا الكنيسة الإسبانية الكاثوليكية بإرسال راهبات منها للخدمة في كنيسة القيامة.

24- الحجّ في القرنين العاشر والحادي عشر

يعتبر القرن العاشر عهد الحجيج الكبير، ذاك أن قراصنة البحر فقدوا ملجأهم قبالة إيطاليا وجنوب فرنسا، وجرى أيضاً انتزاع جزيرة كريت منهم السنة 961. وكان الأسطول البيزنطي في أوج قوته، يسيطر على جميع أرجاء البحر المتوسط. لذلك انتعشت التجارة البحرية، فصارت السفن اليونانية والإيطالية، تمخر عباب البحر في حرية تامة، متنقلة بين موانئ إيطاليا والإمبراطورية البيزنطية، وانتعشت التجارة أيضاً بين الغرب الأوروبي وبر الشام ومصر بفضل تسامح السلطات الإسلامية في هذه الديار. وصار ميسوراً للحجاج أن يحصلوا على تراخيص بالدخول إلى موانئ طرابلس في ليبيا

(1) رنسيمان، ج1، م.س، ص 79.

والإسكندرية إلى جانب القدوم إلى القسطنطينية[1]، ليشاهدوا ما اشتهرت به مجموعة كبيرة للمخلّفات الدينية، ثم يواصلون سيرهم في الطريق البري أو البحري إلى فلسطين .**وكانت السلطات الإسلامية ترحّب بهم ترحيباً ممتازاً، سواء كانت هذه السلطات عباسية أو اخشيدية أو فاطمية، لما يجلبونه للأقاليم من أموال كبيرة**[2].

لقد راجت في تلك الأيام في بلاد الغرب الأوروبي، فكرة أن الحجّ يعتبر من أركان التكفير عن الخطايا وعن التوبة. وهذا الاعتقاد أخذ يزداد مع الأيام ومع فكرة أن لبعض الأماكن المقدّسة، أهمية روحية خاصة، تؤثّر في أولئك الذين يقومون بزيارتها، بل أنها قد تهب للحاج، التحلل والتوبة من الذنوب، فيمكنه أن يؤمن الاتصال الروحي مع الله تعالى والقدّيسين. على أن السفر أو الارتحال لا يزال يستغرق من طول الزمن ويثير من الحماس الديني، ما يكفي لإرضاء ما اشتهر به الرجل الغربي في العصور الوسطى، من الإدراك السليم أو الشعور الديني[3].

لقد استمرّت حركة الحج خلال هذه المدة من الزمن، وأمَّ فلسطين كبار الشخصيات وكبار آباء الكنيسة، نذكر البعض منهم: الأسقف كونستانس كنراد الذي حجّ 3 مرات إلى القدس. وأسقف بارما الذي حجّ 6 مرات، وأسقف أوليفولا الذي جاء إلى فلسطين عام 930، والعدد الكبير من رؤساء الأديرة، وقد أتوا ومعهم جماعات من الفقراء، رجالاً ونساء[4].

(1) المرجع السابق، ص 81.

(2) Rosière, E, De Recueil général des Formules, Usitees dans l'Empire des Francs du V^{ème} Siècle au X^{ème} Siècle, 2 Volumes, Paris, 1879, Vol 2, p. 939, 941.

(3) رنسيمان، م.س، ص 82.

(4) Bréhier, L, L'Eglise et l'Orient au M.A: Les Croisades, Paris, 1928, T3, P 124, 166, 200.

25- دير كلوني، وتنظيم الحجّ

في السنة 910، أنشأ وليم الأول كونت اكيتانيا دير «كلوني» الذي أصبح مركزاً مهماً لأمور كنسية كبيرة، بالغة التنظيم، شديدة التعلق ووثيقة الاتصال بالبابوية. وقد أقرّ مذهبهم الحج. وأرادوا أن يبذلوا مساعدة عملية. ففي بداية القرن التالي، خضع لإشرافهم ومراقبتهم معظم الحجّاج الذين توجّهوا لزيارة الأماكن المقدّسة في فلسطين بعد أن نظموا الرحلات إلى القدس. وبفضل تشجيعهم، جاء إلى القدس السنة 997 كونت فردان (Verdun)، وفي السنة 999 رئيس دير ستافليوت (Stavelot).

وفي القرن الحادي عشر كثر عدد الحجاج القادمين من فرنسا ومن مقاطعتي اللورين والألزاس، ومن الجهات القريبة لدير كلوني ومن الأديرة التابعة لها وكذلك كثر عدد الحجاج الألمان والإنكليز. إلى جانب الدير هذا، شجّع النبلاء الفرنسيون، أمثال كونت أنجو وكونت نورماندیا، الحج إلى فلسطين، كما أن الأول أتى شخصياً إلى القدس العام 1002 لأول مرة، وقد أعاد الكرّة مرتين. أما الثاني فقد أرسل الصدقات إلى الأراضي المقدّسة. أما وريثه فقاد عام 1035، رحلة الحج مع جماعة كبيرة من منطقته، للتكفير عن ذنوبهم والتوبة[1].

26- حجيج شمالي أوروبا

في منتصف القرن الحادي عشر، كثر عدد الحجاج النورمانديين واشتدّ حماسهم، ما حمل السلطة البيزنطية، التي اشتهرت بسخطها عليهم لما شنّوه من غارات على أملاكها في إيطاليا، على أن ترتاب في حركة الحجّ. وكثيراً ما كانت هذه السلطة تقفل طريق الحجّاج إلى جانب أن موظّفيها لم يكونوا دائماً مثال التهذيب في معاملتهم لهؤلاء الحجاج[2].

(1) Bréhier, op.cit,p. 42- 45.

(2) Bréhier, op.cit, p. 42.

أما السكندينافيون فلم يكونوا أقلّ حماسة دينية من النورمانديين، فقد درجوا منذ زمن طويل على زيارة القسطنطينية، واشتدّ تأثّرهم بما اشتهرت به من ثروة وعجائب جمالية. وتقول حوليات ذلك الزمان، إنه كان في ذلك الجيش البيزنطي فعلاً، سنة 930، جماعة من هؤلاء. وفي أوائل القرن الحادي عشر، بلغوا من كثرة العدد، أن تألفت كتيبة خاصة منهم، وهي التي اشتهرت بحرس الورنك. وقد درج هؤلاء على أن يقضوا الإجازة في رحلة الحاج إلى القدس. إلى جانب هؤلاء، لقد أتى إلى فلسطين، حاجاً، كثير من أمرائهم ونبلائهم، طالبين التوبة والمغفرة على جرائم قتل كانوا قد ارتكبوها سابقاً.

كان الشماليون يأتون إلى الشرق، آخذين طريقاً دائرياً، بأن يأتوا عن طريق البحر، مجتازين جبل طارق، وأن يعودوا بطريق البر، عبر روسيا[1].

27- رحلة الحجيج إلى القدس

في القرن العاشر، كان الحجاج يضطرون للانتقال بحراً للوصول إلى القسطنطينية أو إلى بلاد الشام. كانت أجور السفر باهظة الثمن، ولم يكن من السهولة إطلاقاً، الحصول على مكان في السفينة المغادرة.

في العام 975، اعتنق ملوك المجر الدين المسيحي، فانفتحت بذلك الطريق البرية، التي تسير محاذية لنهر الدانوب، وتجتاز البلقان حتى الوصول إلى القسطنطينية. وقد كان هذا الطريق محفوفاً بالخطر حتى سنة 1019، حين تمكّنت الإمبراطورية من السيطرة التامة على البلقان، فتسهّلت الأمور وأصبح الأمان سيد الموقف في تلك النواحي.

وكان السفر براً، برغم بطء السير، أقل كلفة وأكثر راحة من السفر بحراً، وهو أكثر ملاءمة للجماعات

(1) رنسيمان، ج1، ص 85، 86.

الكبيرة من الحجاج[1].

وكلما سار الحجاج في هدوء ونظام، كلما استطاعوا أن يرتكنوا إلى ما يبذله لهم الفلاحون بالإمبراطورية، من الضيافة والمعاملة الطيّبة. ففي المرحلة الأولى من رحلتهم، كان رهبان دير كلوني يشجّعونهم ويتلقون منهم تحبيذاً تاماً. وكان هؤلاء يشجّعونهم في الواقع بجميع الوسائل: فقد شيدوا على جانب الطرقات، الفنادق لأجل الحجاج البائسين كي يستريحوا ويناموا في مستشفى القديس يوحنا، الذي أنشأه تجار «أمالفي» لهذا الغرض[2]. ولم يكن ثمّة ما يمنع «كبار السادة الحجاج من أن يصحبوا معهم حرساً مسلّحاً، طالما يجري ضبطهم. وحاول معظم الحجّاج الالتحاق بهذه الجماعة».

تأزمّت أمور الحجاج في عهد الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله» (996- 1021) الذي هدم كنيسة القيامة السنة 1009. وهذا الهدم جاء بمثابة إشارة لإمكانية هدم كنائس أخرى في كل مكان من بلاد الشام[3]. فلم يكن من اليسير أن يقيم الحجاج زمناً طويلاً في فلسطين، على الرغم من أن سيل الحجاج لم ينقطع مطلقاً.

في السنة 1055، كان العبور إلى أراضي الشرق أمراً بالغ الخطورة. ففي السنة 1056، «منعت السلطة الحجاج القادمين إلى فلسطين، من دخول كنيسة القيامة، حتى يدفع كل واحد منهم قطعة ذهبية، فرضت عليه كجزية نقدية[4]، كما طردت من القدس

(1) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، دار التقدّم، موسكو، ترجمة إلياس شاهين، 1986، ص 22.

(2) زابوروف، م.س، ص 23.
- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، دار نوبِليس، بيروت1990، ص 161.
- رنسيمان، ج1، م.س، ص 88.

(3) الصوري، وليم، م.س، ص 147.

(4) الصوري، وليم، م.س، ص 160.

حوالي ثلاثماية منهم[1]. على أن هذه المضايقات لم تحدّ من طموحات ونشاط الحجّاج. فسيلهم لم ينقطع عن التدفّق نحو الشرق. وفي بعض الأحيان كانوا يأتون جماعات يبلغ عددها الألوف من الرجال والنساء، من كافة الأعمار والطبقات، فيتوقفوا في القسطنطينية لرؤية وتمجيد المخلّفات الدينية، من تاج الشوك الذي وضع على رأس السيّد المسيح أثناء رحلة الصلب على جبل الجلجلة، وردائه. كذلك المخلفات الكبيرة المتعلقة بآلام السيّد المسيح وصورة السيدة العذراء التي رسمها لوقا الرسول، وشعر يوحنا المعمدان، وعباءة النبي الياس، وعدد لا يحصى من جثامين القديسين والأنبياء والشهداء. ومن القسطنطينية، يذهبون إلى فلسطين، إلى الناصرة، وجبل الطور وإلى نهر الأردن وبيت لحم. وعند عودتهم إلى بلدانهم كان مواطنوهم يستقبلونهم بالتحيات والترحاب على أنهم حجّاج السيد المسيح، الذين قاموا بأقدس الرحلات. **ونجاح الحجيج كان يستند إلى شرطين**[2]:

- **الأمن في فلسطين شرط تأمينه من قِبل السلطة الحاكمة.**

- **أن يظل الطريق مفتوحاً وزهيد التكاليف، وهذا يؤمّنه الرخاء وبذل الخير والهبات في بيزنطية.**

3- الوضع السياسي في بلاد الشام وبيزنطية عشية وصول الصليبيين إلى الشرق (1050-1095)

31- الوضع السياسي العام

كان الوضع السياسي العام في بلاد الشام، والشرق في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما يلي:

أ- في الجزيرة الفراتية

- دولة عربية مستقلة في

(1) رنسيمان، ج1، م.س، ص 89.

(2) المرجع نفسه، ص 90.

الموصل، هي الدولة العقلية.

- دولة كردية مستقلة هي الدولة المروانية.

- دويلات عربية لنمير وقشير في حران وقلعة جعبر.

ب- في بلاد الشام:

- الإمارة المرداسية في حلب، تمتد سلطتها على معظم الأجزاء الشمالية من بلاد الشام مع أقسام من الجزيرة الفراتية.

- أجزاء من شمالي بلاد الشام وسواحله، تحت السلطة البيزنطية المتمركزة في أنطاكية.

- إمارة شبه مستقلّة في طرابلس تحكمها أسرة بني عمّار.

- دويلة شبه مستقلّة في شيزر وكفرطاب قرب حماه، هي الإمارة المنقذية مع محاولات لتأسيس حكومات مستقلّة في حمص وأفاميا[1].

- عدد من الإقطاعيات والإدارات شبه المستقلّة في مناطق الساحل خاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية.

- دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح.

32- انحلال الحكم العباسي وسيطرة العنصر التركي

بعد وفاة الخليفة العباسي هارون الرشيد، بدأت تظهر التناقضات في الدولة. وساهمت التحرّكات والثورات السياسية والدينية والاجتماعية في تفكيك الوحدة السياسية.

لقد أجبرت النزاعات بين العرب والفرس، في بغداد، في عهد الخليفة المأمون (813- 833)، هذا العاهل أن يستعمل لحراسته الشخصية، قوات «مرتزقة» مأجورة من المماليك

(1) مكي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت 1977، ص 87- 106.

- بولس، جواد، التحولات الكبيرة في الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للنشر، دون تاريخ، ص 188- 192.

(الأرقاء)، أغلبية عناصرها من الأتراك الآسيويين.

وفي عهد الخليفة المعتصم (833- 842)، بات زعماء هذا الحرس التركي أسياد الدولة، فمنح الخليفة الواثق (842- 847)، رئيس حرسه لقب «السلطان». وبين 861 و870، قتل الحرس التركي خمسة خلفاء، حاولوا بالتتابع التحرر من سيطرتهم.

وفي السنة 872، استقلّت مصر، على يد حاكمها التركي أحمد بن طولون (872- 884)، الذي سلخ فلسطين عن بغداد وضمّ إلى حكمه أيضاً سوريا ولبنان. وفي سنة 905، استرجعت بغداد، مؤقتاً، سيادتها على مصر التي عادت وانفصلت عام 935، على يد حاكمها التركي محمد بن طغج، الملقب بالأخشيد واسترجعت فلسطين وسوريا ولبنان (935- 969).

33- الخلافة الفاطمية (969- 1171)

مؤسس هذه الخلافة هو عبيد الله بن محمد الحبيب، الذي أتى من العراق إلى بلدة السَلَمية قرب حماه، هرباً من ملاحقة عمّال العباسيين ثم ارتحل إلى افريقيا الشمالية. في عام 910حلّ محل الأغلبيين في الحكم واتّخذ لقب «المهدي» وأمير المؤمنين وأسّس مدينة «المهدية» في تونس سنة 916.

وفي عام 969 احتلّ الخليفة الفاطمي «المعزّ لدين الله» دلتا النيل بقيادة جوهر الصقلي (المسيحي) وسيطر جيشه الشيعي على الأخشيديّين السنّة دون أن تعترضه أية مقاومة تُذكر. بعدها وجّه الفاطميون جيشاً إلى بلاد الشام فاحتلّ دمشق بالقوة ما يعني السيطرة التامة على بلاد الشام.

لكن الفتح الفاطمي كان يقابله من جهة ثانية محاولة بيزنطية لاستعادة سوريا، فقد تمكّن الإمبراطور «نقفور» في عام 968، من اجتياح شمالي سوريا واحتلال أنطاكية وحمص وحماه واللاذقية وحلب (967)[1]. لكن

(1) مكي، م.س، ص88.

القرامطة، المتحالفين مع العباسيين، هاجموا سوريا واحتلّوا دمشق الأمر الذي أجبر الفاطميين على إعادة احتلالها في عام 974. كذلك لبنان وكامل سوريا وفلسطين من جديد[1].

34- إمارة بني عمّار في طرابلس لبنان (1070- 1109)

في أواسط القرن الحادي عشر، كانت الخلافة الفاطمية تمرّ في فترة من الانحلال والفوضى، مما جعلها غير قادرة على حكم بلاد الشام. وفي هذه الأثناء بدأ السلجوقيون بالسيطرة على العراق، ليتوسّعوا على حساب الأراضي البيزنطية. وأصبح العالم الإسلامي الشرقي منقسماً إلى قسمين: الأول يسيطر عليه الشيعة بزعامة الفاطميين، والثاني يسيطر عليه السنّة، بزعامة الأتراك السلاجقة. هذا التجاذب أدّى إلى قيام إمارات محلية وطنية شبه مستقلة في طرابلس وحلب وصور ودمشق وفلسطين. وكان أبرزها إمارة بني عمّار في طرابلس، التي تأسست عام 1070، وكانت تمتد من جبلة شمالاً إلى جبيل جنوباً. وقد اتّبعت سياسة مرنة تجاه الفاطميين والسلاجقة. وفي السنة 1098 ابتدأت تتلقّى قدوم الصليبيين الأوروبيين وقد حاول أميرها الاستنجاد بالعباسيين لكنه فشل فسقطت إمارته بأيدي الفرنجة المسيحيين عام 1109.

35- إمارة بني عقيل في صور (1070- 1098)

أسسّ هذه الإمارة القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل في السنة 1070، لكن الفاطميين حاصروها، لكن النجدة التركية التي وصلتها من دمشق أنقذتها. ثم عاد الفاطميون وحاصروا صور لمدة سنة كاملة، فوقعت فيها مجاعة كبيرة لكن أهلها صمدوا. وهذا الصمود مكّن ابن عقيل من تثبيت دعائم ملكه. وقويت الإمارة عندما أصبح البقاع ودمشق بأيدي السلاجقة. وفي عام

---

(1) مماثل، ص 90.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت للنشر، 1965، ج8، ص 657.

1098، حاصرها الفاطميون مجدداً واستولوا عليها وكذلك احتلوا صيدا وجبيل وبقيت المنطقة بأيديهم حتى وصول الجيوش الصليبية إليها.

36- السلاجقة الأتراك وانتصارهم على البيزنطيين في مانزكرت (1071)

كانت القبائل التركية «الغز» تخضع للإمبراطورية الخزرية. وفي نهاية القرن الثامن انفصل الغز عنها وأصبح لهم زعامتهم الخاصة. ودعا العرب الغز أحياناً باسم «التركمان» وكان عندهم حوالي /22/ قبيلة. وكانت قبيلة «قنق» أكثر هذه القبائل قوّة وشهرة وعدداً، وبرز منها مقاتل يدعى «دقاق» استلم زعامتها وأولد له ابن سمّاه «سلجوق» وأولد سلجوق أربعة ذكور عاش منهم ثلاثة هم: ميخائيل وموسى وأرسلان. وقد اعتنق دقّاق الإسلام ديناً له، كثر عدد التركمان في خراسان (بلاد الفرس) وتفجّرت مشكلتهم زمن السلطان مسعود بن محمود الذي لم يتمكّن من إنهائها. فقامت معارك بين التركمان والغزنويين، كانت غالبيتها لصالح التركمان. وفي العام 1040، أوقعوا هزيمة نكراء بالسلطان مسعود وراحوا يستعدّون للزحف على بغداد. وكان من أهدافهم فتح طريق أرمينيا فبيزنطية، حتى تهاجر قبائل التركمان إليها وتسكنها[1].

وفي العام 1055 كانت جيوش السلاجقة تدق أبواب بغداد ليستقبلها الخليفة «القائم بأمر الله» واضعاً نفسه في حمايتها. ومنذ ذلك الوقت، اقتسم السلاجقة في بغداد والفاطميون في القاهرة بلاد الشام: شمالي سوريا بيد السلاجقة، وجنوبها بيد الفاطميين.

كان زحف السلاجقة الأشد خطراً على الإمبراطورية البيزنطية[2]، ففي العام 1071، زحف الإمبراطور البيزنطي

(1) الصوري، وليم، م.س، ص 38.

(2) زابوروف، م.س، ص 29.

بجيشه لطرد السلاجقة من أراضيه وإغلاق أراضي أرمينيا في وجوههم[1]. لكن القائد السلجوقي اقتحم مقاطعة أرمينيا واشتبك في حروب مع جورجيا، وتغلغل في جيشه أوسع فأوسع في إقليمي بيزنطية، في آسيا الصغرى- وكبدوقيا وفريجيا[2].

لم يطل الوقت حتى جمع الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجين، عام 1071، جيشاً كبيراً بلغ عديده ثلاثماية ألف رجل أو يكاد، جل عناصره من المرتزقة غير الموثوقين بولائهم. وفي 19 آب 1071، اشتبك الجيشان في معركة دموية كبيرة، شمالي بحيرة ڤان في أرمينيا، انتصر فيها السلاجقة انتصاراً ضخماً قرب «مانزكرت» ووقع الإمبراطور نفسه في الأسر. وهكذا، تمركزوا في آسيا الصغرى وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، فكانت بداية تحويل بيزنطية إلى تركيا[3]. وقد أصبح السلاجقة أبطال الإسلام السنّة في الشرق الأدنى، فحلّوا منذ تلك الحقبة، محل الفرس والعرب المنهوكين، ليعيدوا الهلّلينية إلى مهدها.

في العام 1092، كانت حدود سلطنة السلاجقة تمتد من كاشغر في أقصى بلاد تركستان شرقاً إلى القدس غرباً ومن القسطنطينية شمالاً إلى بلاد الخزر جنوباً. بينما كانت بيزنطية، تعاني في هذه الأثناء من الفوضى في أكمل مظاهرها. فجيشها ضعيف للغاية، ولا يُعتمد عيه وخزينتها خاوية تشكو على الدوام نقصاً في الأموال.

وفي العام 1084، استولى السلاجقة على أنطاكية وردّوها إلى الإسلام وسُمِّيَت «دولة سلاجقة الروم». وعندما عبرت جيوش الصليبيين من أوروبا إلى آسيا الصغرى، سنة 1097، حاولت قوات دولة سلاجقة الروم

(1) الصوري، وليم، م.س، ص 39.
(2) زابوروف، م.س، ص 29.
(3) مماثل، ص 30.

التصدي لها، فعجزت عن ذلك. وهكذا وصل الفرنج النصارى العام 1098 إلى مشارف الشام[1]، بعدها استولوا على أنطاكية بعد حصار دموي دام سبعة شهور ونيّف.

4- أوروبا المسيحية تتحضّر لاجتياح بلاد المسلمين والوصول إلى القدس (1095-1096)

41 ـ الحروب الصليبية، فصل من فصول المسألة الشرقية

تمثّل الحروب الصليبية فصلاً من الفصول العديدة للمنافسة المستمرّة والنزاع شبه الدائم، بين الشرق من جهة والغرب الأوروبي من جهة ثانية، هذا النزاع المستمر، منذ أقدم الأزمنة، والمعروف باللغة الأوروبية الغربية، باسم «المسألة الشرقية La Question d'Orient».

بدأ هذا الصراع بين عالمين متناقضين، مع حرب طروادة، حوالى 1200 ق.م.، بين طروادة، في آسيا الصغرى على شاطئ الدردنيل، والإغريق، في بلاد اليونان. والبعض من المؤرّخين يقول إنها ابتدأت في عهد داريوس واحشويروش من ملوك الفرس في القرن الخامس ق.م.، عندما هاجما اليونان في أوروبا. وأعاد الاسكندر المقدوني الزيارة لهما في أرض فارس. بعد الإسكندر جاء الرومان، الغربيون منهم والشرقيون. ثمّ جاء الإسلام وقضى على السيطرة الغربية في الشرق التي دامت ألف سنة (330 ق.م. ـ 640 ب.م.) في هذه المنطقة، وراح يهدّد أوروبا: في مؤخّرتها من الأندلس وفي أواسطها، من جزيرة صقلية، وفي مقدّمتها، على أيدي السلاجقة، الذين كانوا يطمعون بالاستيلاء على القسطنطينية. فكانت ردّة الفعل حروباً قام بها أناس من

(1) سيد، أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص 291.
- الصوري، وليم، م.س، ص 40.
- بولس، م.س، ص 235- 237.

أوروبا يحملون صلباناً في أعناقهم وعلى ملابسهم. ولذلك عرفوا بالصليبيين[1].

42 ـ أسباب الحروب الصليبية

يعتقد البعض من المؤرّخين، أن الحملات الصليبية، كانت تعبيراً عن شعور ديني عميق وصادق شمل المسيحيين في الغرب الأوروبي، وأيقظهم واستحثّهم فتمنطقوا بالسيوف والخناجر واندفعوا، بإشارة من يد بابا روما، إلى إنقاذ المقدّسات المسيحية في فلسطين. أما الاختصاصيون ذوو التفكير السليم، فإنهم يرون أن الغلاف الديني للحروب من «أجل قبر المسيح» ليس سوى قناع يستر وراءه أسباب متعدّدة ومتنوّعة[2].

ففي أواخر القرن الحادي عشر، ابتدأ الأوروبيون بغزو الشرق وقد استمرّت حركة الغزو هذه مدّة قرنين كاملين وسمّيت الحروب الصليبية، لأن الجنود كانوا يحملون شارة الصليب على صدورهم. وكانت الحملات الصليبية تأتي تباعاً من أوروبا بطريق البر أو البحر وتلتقي في البلدان الشرقية الممتدّة على ساحل البحر المتوسّط من آسيا الصغرى حتى البلاد المصرية. أما هدفها الرئيسي، كما كان يبدو، فهو انتزاع مدينة القدس وسائر الأراضي المقدّسة عند المسيحيين من أيدي المسلمين.

لقد اشترك في تلك الحملات العسكرية عددٌ كبير من الأوروبيين، وقد جاوز مئات الآلاف عداً. وكان التأييد لها عظيماً للغاية واختياراً، قلّ نظيره في تاريخ الحروب في العالم.

لا يوجد سبب واحد معيّن، يمكننا أن نقول باطمئنان إنه هو وحده الدافع إلى كلّ ما جرى. فالأسباب متعدّدة والدوافع متباينة. **فهدف الرجل المتديّن المؤمن منها، كان غير هدف**

---

(1) حتي، فيليب دكتور، صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، ص 161، 162.

(2) زابوروف، مرجع سابق، ص 4.

وغرض التاجر، وهدف رعاع الناس ونواياهم كان مختلف تماماً عن هدف ونوايا النبلاء والقادة الكبار الذين اشتركوا في الحملات العسكرية.
وسنحاول أن نذكر أهمها:

أ ـ الأسباب الدينية

(1) ـ اضطهاد الحجاج المسيحيين

كانت مدينة القدس من أهم الأماكن المقدّسة عند المسيحيين، وهم يحجّون إليها من مختلف أنحاء الأرض. ولما استولى العرب عليها السنة 637، لم يتعرّضوا للحجاج النصارى بل احترموهم وأحسنوا معاملتهم وحموهم من قطّاع الطرق واللصوص.

ففي شباط السنة 638، دخل إلى القدس، الخليفة عمر بن الخطاب، راكباً جملاً أبيض اللون. وكان يرتدي وقتذاك ثياباً شبة قديمة، كما تقول التواريخ. وسار إلى جانبه البطريرط صفرونيوس، باعتباره رأس رجال الإدارة في المدينة التي أذعنت للفتح. على أن عمر بادر بالتوجّه، إلى الموقع الذي صعد منه النبي محمد إلى السماء. ثمّ طلب الخليفة زيارة مشاهد المسيحيين، فصحبه البطريرك إلى كنيسة القيامة وأطلعه على كلّ ما فيها. وبينما كان بالكنيسة، اقترب موعد الصلاة عند المسلمين. فتساءل الخليفة، أين يستطيع أن يفرش قباءه للصلاة؟ فطلب إليه البطريرك أن يبقى في مكانه، غير أن عمر تراجع إلى المدخل الخارجي للكنيسة، كيلا يطالب، على حدّ قوله، أتباعه المتحمّسون في دينهم، بأن للإسلام حقاً في المكان الذي أدّى فيه عمر الصلاة[1].

لم تستمرّ هذه المعاملة الطيّبة بعدما ضعفت الدولة العباسية وانقسمت إلى دويلات، فلقي المسيحيون كثيراً من الاضطهاد وهدمت كنيسة القيامة وتعرّضت حياة الحجاج للخطر الشديد[2].

(1) رنسيمان، ج1، ص 18.
(2) حتي، لبنان في التاريخ، ص 343 ـ 344.

ازدادت الحالة سوءاً، عندما سقطت القدس في يد السلاجقة السنة 1076، فنكّل بالنصارى وكثر التعدّي على الحجاج الأوروبيين بشكل خاص، بسبب ما كانوا يحملونه معهم من الأموال وغيرها. نشر الحجاج في بلدانهم أخبار الاضطهاد الذي تعرّضوا له في الشرق مما أثار حماسة المسيحيين وراحوا يفكّرون في تأمين حرية العبادة للنصارى وحرية الوصول إلى الأماكن المقدّسة بأمان [1]. وهذا الشعور الديني المجرّد عن كلّ غاية كان أحد العوامل الأساسية التي حملت كثيراً من المتدينين على التطوّع للقتال في الشرق. وهذا الشعور أيضاً كان في جملة العوامل التي جعلت البابا يدعو إلى الحروب الصليبية ويتزعّم حركة تنظيمها [2].

(2) ـ رغبة بابا روما في السيطرة على الأماكن المقدّسة

كان بابا روما يرمي إلى أبعد من حماية الحجاج وتأمين وصولهم إلى قبر المسيح بحرية وأمان. كان يريد السيطرة المباشرة على الأماكن المقدّسة في فلسطين والتي هي في أيدي المسلمين وتحت رعايتهم. وقد عطف على الحركة الصليبية وأيّدها بكلّ قواه لأنه كان يأمل أن تحقق له هذه الأمنية الغالية [3].

(3) ـ طمع الخاطئين في الغفران عن الخطايا[4]

كان البابا يمنح الغفران عن الخطايا لمن يتجنّد في الجيوش الصليبية، فأقبل عدد كبير من الاتقياء على السفر إلى الشرق لتُقبل توبتهم ولينالوا الغفران ويدخلوا السماء. «أن

---

(1) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط 2، بيروت 1957، ص 50.

(2) وليم، ج1، ص 167.

(3) وليم، ج1، ص 168.

- رنسيمان، ج1، ص 171.

(4) رنسيمان، ج1، ص 172 ـ 173.

كلّ من يرتحل إلى القدس بدافع التقوى والورع، وبهدف تحرير كنيسة الرب وليس بغية الحصول على المجد أو المال، فإنه يستطيع بهذه الرحلة أن يكفّر عن ذنوبه وآثامه كافة»[1].

ب ـ الأسباب السياسية

(1) ـ وقف زحف السلاجقة نحو أوروبا

لا تقلّ الأسباب السياسية أهمية عن الأسباب الدينية. **لم تكن الحروب الصليبية إلّا حلقة من الصراع العنيف الطويل بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي**، كما قلنا سابقاً، والذي تجلّى من قبل بحروب الفرس واليونان وقرطاجة وروما وغيرها. ففي السنة 634، ابتدأ العرب يهاجمون الغرب. فانتصروا على البيزنطيين وأخرجوهم من بلاد الشام واستولوا على شمالي أفريقيا، ومنها وثبوا إلى البر الأوروبي في إسبانيا وجزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا. وفي القرن الثامن، هدّد العرب أوروبا كلّها تهديداً خطيراً مباشراً. وفي القرن الحادي عشر، هاجم السلاجقة بيزنطية في آسيا الصغرى فاحتلّوا معظم تلك البلاد واقتربوا من شواطئ بحر مرمرة وهدّدوا القسطنطينية نفسها بالسقوط. وقد طلب الإمبراطور مساعدة الغرب عن طريق بابا روما فوقعت الحروب الصليبية، وكانت مظهراً جديداً من مظاهر ذلك الصراع الهائل والمخيف الذي ما يزال قائماً بين الشرق والغرب حتى يومنا هذا [2].

(2) ـ طموح النبلاء إلى تأسيس ممالك وإمارات

ومن الأسباب السياسية أيضاً أن

---

(1) الأمين، حسن، غارات على بلاد الشام، توزيع دار قتيبة، ط1، بيروت 2000، ص 131، 132.
- جواهر لال نهرو، ص 51.
- زابوروف، ص 45.

(2) زابوروف، ص 37.

كثيراً من النبلاء والفرسان لم يتيسّر لهم في بلاد الغرب أن يخوضوا الحروب ويفتحوا البلدان ويصبحوا أمراء وملوكاً. فاحبوا أن يأتوا محاربين إلى الشرق لعلّهم يستطيعون أن يحققوا هنا ما عجزوا عن تحقيقه هناك. وقد نجح بعضهم فعلاً في ما أراد، وأسّس ممالك وإمارات مثل غودفري دي بويون وبودوان دي بويون وبوهيموند وريمون دي تولوز وغيرهم.

ج ـ الأسباب الاقتصادية

(1) ـ سوء الحالة الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية في أواخر القرن الحادي عشر حسنة تماماً. فقد تفشت الأمراض والبؤس في أوروبا ولا سيما المنطقة الواقعة بين شاطئ المانش وتشيكوسلوفاكيا. وفي سنة 1095، أمحلت المواسم في شرقي فرنسا، فساءت حالة الصناعة[1] والتجارة، وانتشرت المجاعة، ولم يعد من السهل على الفقراء أن يجدوا عملاً يرتزقون منه. **فإن الكثير من أولئك الفقراء والجياع والعاطلين عن العمل، وجدوا بالدعوة إلى الحروب الطليبية، خير وسيلة لكسب العيش ولجمع الثروة عن طريق الغزو والسلب واللصوصية.** كما أن الكنيسة تعهّدت بإعالة من يتركهم المحاربون وراءهم من العاجزين والقاصرين. فقد تمتع المحاربون بمكافأتين دينية ودنيوية: الأولى من البابا الذي يمنحهم الغفران عن ذنوبهم وخطاياهم، والثانية الثروة التي تمنحهم إياها اللصوصية والغزو، عدا عن الحرية والتمتع بالأراضي «لتدرّ لهم العسل والسمن أنهاراً»[2].

(2) ـ طمع الناس في غنى الشرق

تحمّس الناس ورغبوا في الانضمام إلى الجيش الصليبي الآتي إلى الشرق بهدف أن يعودوا بعد الحملة إلى قراهم وبلدانهم وبحوزتهم

---

(1) زابوروف، ص 14 ـ 17.

(2) زابوروف، ص 48 ـ 49.

مبالغ كبيرة من الأموال والذهب فيصبحوا أغنياء وأثرياء. لقد اتصل بهم أخبار كثيرة عن غنى الشرق وثرائه. ولا شك في أن تلك الأخبار كان قد بولغ فيها كثيراً. فأخبار الحجاج كانت مضخّمة عن القصور الشرقية وحياة البذخ والترف التي كان يحياها الخلفاء والأغنياء في دمشق وبغداد، وبالأموال الطائلة التي كانوا يمنحونها جوائز للشعراء والأدباء والمقرّبين إليهم، أو يدفعونها ثمناً للجواري والمغنيات والراقصات والمعطيات. وقد لعبت دوراً قصة ألف ليلة وليلة وما تحتويه من أخبار عن غنى وثراء أهالي بغداد على أيام العباسيين. فتوهّم بعض الغربيين أن الشرق كلّه ذهب وفضّة وحور وقصور، وظنّوا أنهم يستطيعون أن ينتقلوا فيه من حالة الفقر إلى حالة الثراء بلمحة بصر[1]. لهذا صادفت الدعوة إلى الحروب الصليبية استجابة سريعة من الفقراء والمغامرين وبعض المجرمين الذين اندسّوا بين صفوف المحاربين متّخذين هذه المناسبة وسيلة إلى جمع المال من أسهل الطرق[2].

(3) ـ السيطرة على أسواق الشرق التجارية

من بين الذين أمّوا الشرق مع الحملات الصليبية عددٌ كبير من التجار الإيطاليين وغيرهم من التجار الأوروبيين. وكان هؤلاء يتاجرون مع أهالي الشرق ويصرّفون بضاعتهم ومنتجاتهم. وعندما أصبح الحكم بيد الفاطميين في مصر والسلاجقة في بر الشام والعراق، عرقل هؤلاء حركة التجارة الأوروبية مع آسيا الصغرى. لذلك صبر التجار الأوروبيون على الضيم حتى جاءتهم الدعوة إلى الحملات الصليبية فلبّوها فوراً وأيّدوها بشدّة، طمعاً في تحقيق مشاريعهم المالية وأهدافهم التجارية وهي الحصول على موارد الشرق

(1) زابوروف، ص 38.

(2) زابوروف، ص 47، 50، 51.

ومنتجاته بأحسن الشروط وأبخس الأثمان[1].

إلى جانب كلّ هذه الأسباب والدوافع التي أدّت إلى الحملات الصليبية نحو الشرق والتي وردت في سياق هذا البحث، نرى أنه يوجد أسباب أخرى كثيرة، لكنها أقلّ حدة من سابقاتها منها أن **الدول الأوروبية أرادت أن تتخلّص من اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق، ففتحت لهم أبواب السجون للانضمام إلى الحملات الصليبية الأولى**. إلى جانب ذلك، أعفي الصليبيون من تأدية الضرائب والرسوم العائدة للكنيسة أو الدولة ومن دفع الفوائد القانونية عن الديون المتوجبّة عليهم.

لقد كانت دوافع الحرب كثيرة ومتنوعة وكذلك أسبابها وقد شغلت الشرق والغرب مدّة قرنين كاملين من الزمن ووسّعت الهوّة بين أوروبا المسيحية وآسيا المسلمة. ولا يزال الشرق يعاني من نتائجها لغاية يومنا هذا. فالمسألة الشرقية لا تزال دون حلّ يذكر[2].

43 ـ القادمون من الغرب يعبرون إلى بلاد الشام (1096)

أ ـ نداء الإمبراطور البيزنطي إلى البابا أوربانوس الثاني (1094)

في أواخر القرن الحادي عشر، هاجم السلاجقة الأتراك الدولة البيزنطية وهدّدوا عاصمتها، القسطنطينية، بالسقوط. فوجّه الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس في سنة 1094، نداءً حاراً إلى البابا أوربانوس الثاني يلفت نظره فيه إلى الخطر الشديد الذي كان يهدّد دول أوروبا بأجمعها ويطلب إليه أن يمدّه الملوك والأمراء الغربيون بالجيوش لصد السلاجقة ولمنع إعتدائهم على الحجاج المسيحيين وهم

(1) زابوروف، ص 47، 50، 51.

(2) زابوروف ص 36 ـ 38.

في طريقهم لزيارة الأماكن المقدّسة في فلسطين(1).

لقي نداء الأمبراطور الكسيوس استحساناً لدى البابا خاصة وأن الكنيسة المسيحية كانت قد انشقّت نهائياً في سنة 1054 إلى كنيستين مستقلّتين إحداهما شرقية، (اورثوذكسية) مركزها القسطنطينية ورئيسها البطريرك، والأخرى غربية (كاثوليكية) مركزها روما ورئيسها البابا. وكان البابا اوربانوس الثاني مايزال يأمل في أن ينجح في إزالة الخلاف وجمع صفوف المسيحيين في كنيسة موحّدة تحت رئاسته. لذلك حرص كثيراً على أن يلبّي سريعاً، طلب الامبراطور البيزنطي المهيمن على الكنيسة الشرقية(2).

ب ـ الدعوة إلى الحرب (1095)

لم يكذ البابا أوربانوس الثاني يتسلّم نداء الإمبراطور البيزنطي حتى دعا إلى عقد مؤتمر ديني عام في مدينة كليرمون فرّان في فرنسا السنة 1095. لم يأتِ البابا إلى فرنسا كي يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب، فعندما وطأت قدماه الأراضي الفرنسية، أنبأ كذلك أنه ينوي أن يساعد الإخوان «المسيحيين الشرقيين». وتقول حوليات ذلك الزمن، أن البابا كان قد رسم في الوقت المناسب خطة ما للعمل، قد لا تكون بعد كاملة الخطوط ولكنها واضحة من حيث أهدافها ومراميها ومغزاها العام. إلاّ أنه كان لا بدّ من بضعة أشهر لكي تكتسب هذه الخطة ملامح على ما يكفي من الدقّة(3).

---

(1) زابوروف، ص 37
- رنسيمان، ج1، ص 167.
- بولس، ص 245.
- المسيحية عبر تاريخها في المشرق، ص 544.

(2) زابوروف، ص 32، 37، 38.

(3) زابوروف، ص 41.
- رنسيمان، ج1، ص 166 ـ 168.

انعقد المؤتمر في الفترة الواقعة بين 18 تشرين الأول و28 تشرين الثاني السنة 1095 فلبّت دعوة البابا جموع غفيرة جداً لم تتسع لها أرحب الكنائس والقاعات، فعقد ذلك الاجتماع التاريخي في ساحة فسيحة في العراء. كما شهده نحو ثلاثمائة من رجال الدين، الذين تشعبّت أعمالهم. وقد أقاموا الكرسي البابوي على منصّة مرتفعة تطلّ على الساحة. **وتكلّم البابا، فأتى على ذكر طلب الإمبراطور الكسيوس، ثمّ وصف بأسلوب عاطفي مثير حالة المسيحيين والحجاج في الشرق. فأثار خطابه حماسة الحاضرين وقرّروا أن ترسل أوروبا جيوشاً عديدة لنجدة الامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة.** ولتتقدّم بعد ذلك إلى فلسطين وتستولي عليها[1]. ومما قاله البابا: «أن هؤلاء الأتراك... الذين وصلوا إلى البحر المتوسّط... ذبحوا وأسروا كثيرين من المسيحيين، ودمّروا الكنائس واجتاحوا مملكة الرب (بيزنطية)» وحاول البابا أن يصوّر الحرب التي استحثّ «المؤمنين» على شنّها بصورة مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح في القدس ولإنقاذ «الأخوة العائشين في الشرق»: «... أنا أقول هذا للحاضرين واكلّف بإبلاغ الغائبين... هكذا أمر يسوع المسيح...»[2]، «ليكفّ الكره بينكم، لتصمت العداوة، لتهدأ الحروب، وتندثر الخصومات والنزاعات على اختلافها»[3].

لقي خطاب البابا صدى حياً، حماسياً بين المجتمعين. وحظى برنامج الزحف نحو الشرق بتحبيذ الإقطاعيين وفرسانهم.

لقد تمّ الاتفاق على أن تسمّى تلك الحملات «بالصليبية» وعلى أن

(1) رنسيمان، مرجع سابق، ج1، ص 171.

(2) زابوروف، مرجع سابق، ص 43 ـ 44.

(3) المرجع نفسه.

يحمل كلّ من يشترك فيها شارة الصليب بلون أحمر على صدره، رمز التضحية والوفاء[1].

ومهما يكن من أمر، فقد سرى مفعول خطاب البابا، متجاوزاً كثيراً توقّعاته بالذات، وحتى غير متطابق بقدر ما، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين إلى الحرب الصليبية. وقد نهى البابا المتقدّمين في العمر والمرضى والضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح، من الاشتراك في الحملة الصليبية[2].

أما الفرسان والأسياد، فإن النداء إلى تحرير الأرض المقدّسة قد وقع بينهم في تربة صالحة تماماً، مما أسهم في تسعير نار الحرب. فتقرّر أن يتجهّز كلّ فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء 15 آب في السنة التالية، بعد أن يتمّ جمع المحصول، وينبغي ان تلتقي الجيوش في القسطنطينية[3]. ثمّ تقرر أنه لا بدّ من تعيين قائد للحملة. أراد البابا، على ما يبدو، ان يوضح أنه لا بدّ أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة. فينبغي أن يتولّى قيادتها أحد رجال الكنيسة، وليكن مندوبه. فاتخذ المجمع قراراً بالإجماع بأن يكون أسقف لي پوي (Le Puy) قائداً للحملة، فهو مبشّر بارع ودبلوماسي ماهر، هادئ الطباع شديد الرفق ويجمع الناس على احترامه، يسعى للإقناع لا لفرض أمره، غير أنه لم يتوافر له من الحزم والصلابة، ما يكفي لضبط الأمراء والبارونات المشتركين في الحملة[4].

كان ريمون كونت تولوز، أول من طلب من الأمراء، الاشتراك في الحملة. وكان لا بدّ من أن تكون له

(1) رنسيمان، ج1، ص 173.

(2) زابوروف، ص 49.

- رنسيمان، ج1، ص 173.

(3) رنسيمان، ج1، ص 174.

(4) رنسيمان، ج1، ص 174.

القيادة العلمانية على سائر كبار القادة والأمراء[1].

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل الدعاة إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية ليحثّوا الناس على التطوّع في الحملة الصليبية. فراحوا يجوبون البلدان من أقصاها إلى أقصاها يخطبون في الناس واصفين الاضطهاد الذي كان يتعرّض له المسيحيون على أيدي الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا يتنازعون السلطة على بلاد الشرق وبر الشام والديار المصرية.

وقد بالغ الخطباء كثيراً في رواياتهم، إما لجهلهم واقع الحال أو لأنهم كانوا يرمون من وراء ذلك إلى إثارة نفوس السامعين وحملهم على تقديم جميع التضحيات التي تُطلب منهم مهما كانت جسيمة. **وكان أشهر أولئك الدعاة وأكثرهم نشاطاً وأقواهم صحّة وأفصحهم لساناً رجل اسمه «بطرس الناسك» من بيكاردي[2] والراهب روبير دابريسل.** وكان الاثنان واعظان متعصّبان للحرب الصليبية يطلبان من الناس امتشاق السلاح. وقد تأثّر بخطب بطرس الناسك، ليس رعاع الناس، بل الفرسان والفلاحين والفقراء المعدمين لأنهم كانوا يروا فيه رجل «الرب وكانت الجموع تسير وراءه كأنما تسير وراء قديس أو نبي»[3] وكان يعرف كيف يصالح بين المجادلين والمتنازعين[4].

وفي شتاء 1095 ـ 1096، اجتمعت في فرنسا مجموعات مدنية غفيرة من الفقراء والمعدمين المستعدّين للذهاب إلى المناطق البعيدة في الشرق. كان الجوع يجبر الفلاحين على اللحاق بالحملة بأسرع ما يمكن. ولذا كانت

---

(1) المرجع السابق.
(2) - رنسيمان، مرجع سابق، ج1، ص 179.
- زابوروف، مرجع سابق، ص 51.
(3) - زابوروف، المرجع نفسه، ص 52.
(4) المرجع نفسه.

تجمّعاتهم تجري في تسرّع محموم «للسير على درب الرب[1]» والفلاحون يتحرّقون من فارغ الصبر للذهاب إلى ملاقاة الخطر. وكان الكثير منهم «يوسم بالنار صليباً على جسمه»[2].

وفي آذار من السنة 1096 نهضت أوّل جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر واللورين وألمانيا ومن بلدان أخرى في أوروبا الغربية إلى الحج المقدّس. كان الفلاحون يأتون تقريباً دون سلاح. كانت الهراوات والمناجل والفؤوس والمذاري تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف: فالجموع عزلاء من السلاح»[3].

❊ ❊ ❊

(1) زابوروف، مرجع سابق، ص 53.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص 54.



الفصل الثّاني

الصليبيون الفرنجة يزحفون نحو الشرق الإسلامي

(1096)

1- تجهيز الحملة الأولى وبداية الزحف - حملة الفقراء

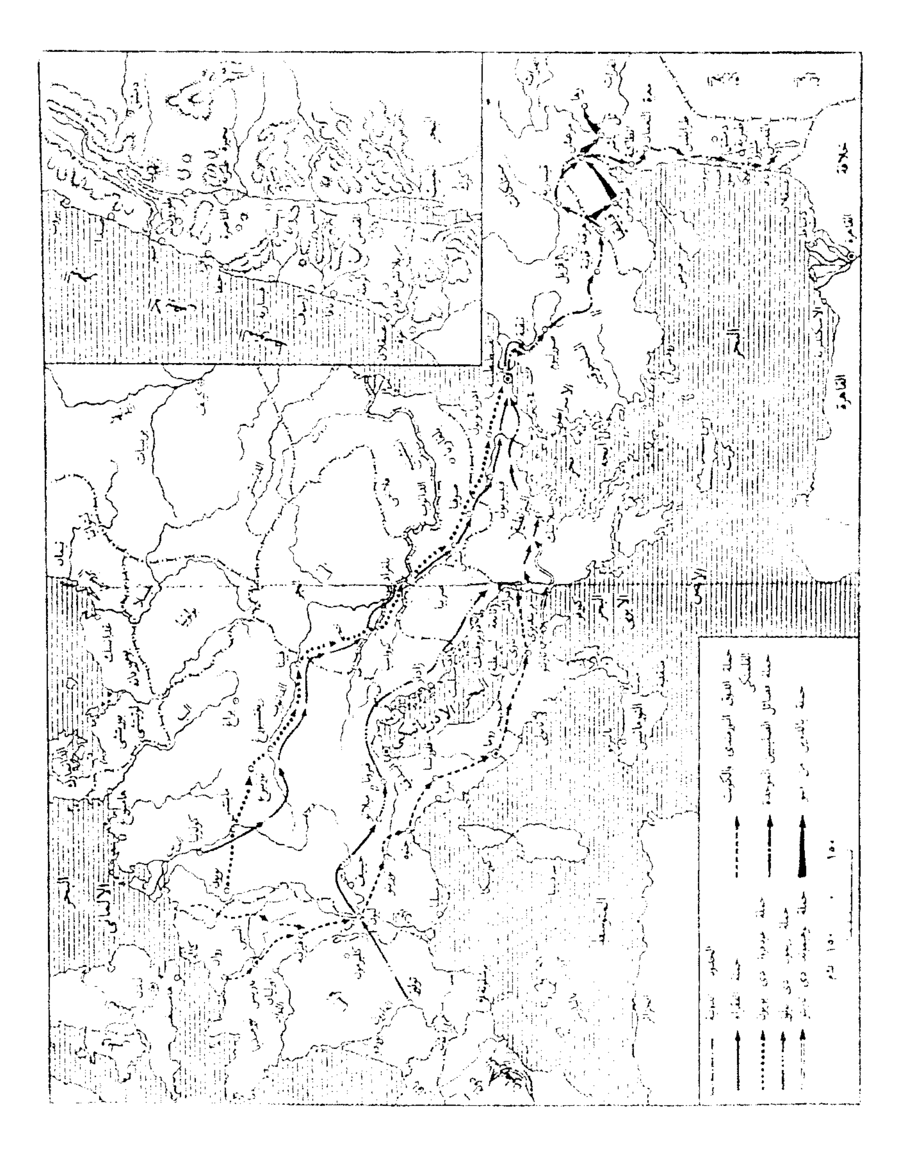
انضم إلى الحركة الصليبية عدد كبير من الرجال، من أشد الناس في أوروبا حيرة وميلاً إلى المغامرة. فلما عاد البابا أوربانوس إلى روما، لتمضية عيد الميلاد عام 1096، ازداد إحساساً بالاطمئنان إلى أن الحملة الصليبية اكتملت عدتها وتجهيزاتها[1]. لقد حدّد البابا يوم 15 آب موعداً لرحيل الحملة. وفي أواخر شهر أيار 1096، قدم من الشمال رسول أخبر الإمبراطور البيزنطي، أن جيشاً من الفرنج اجتاز بلاد المجر ونفذ إلى أراضي الإمبراطورية عند بلغراد. وكان قد التفّ حول بطرس الناسك وبعض المتحمسين من أمثال ولتر المفلس

(1) رنسيمان، م.س، ص 178.

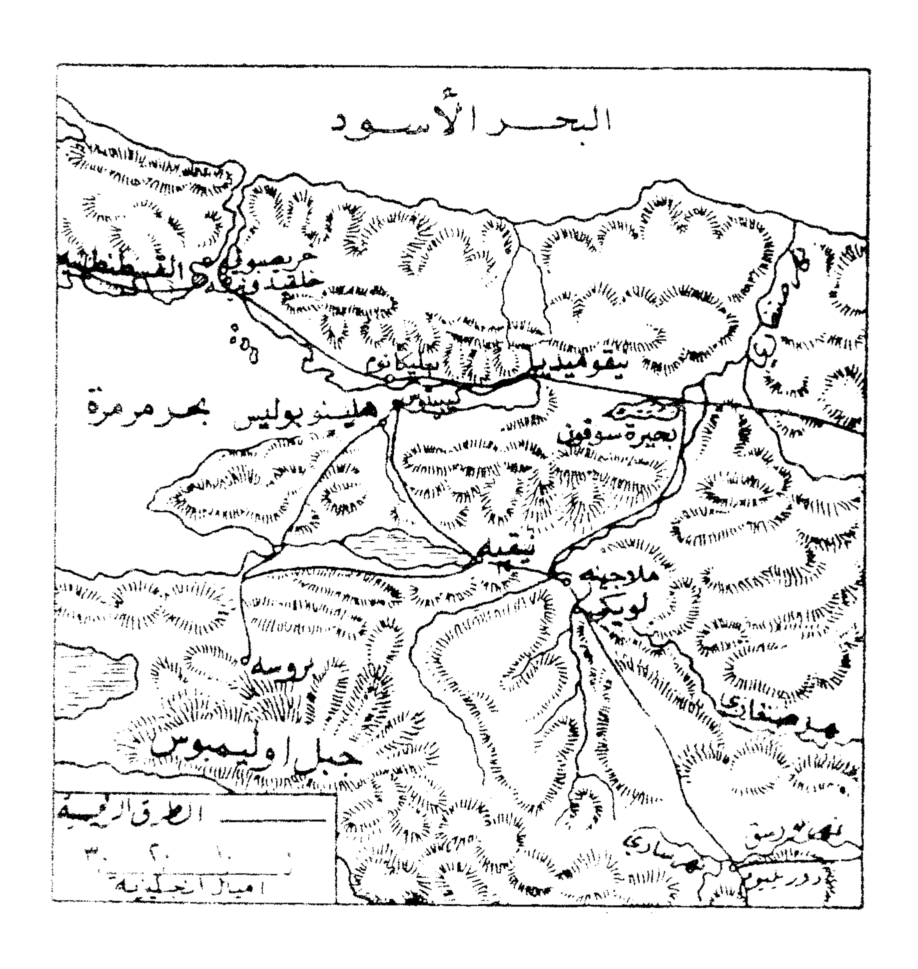
(Walter Sans -avoir) وريـنـالـد بـرايـس وجفري بوريل ووالتر برتييل وأورل وجو تشالك الألمانيان، عدّة ألوف من الفقراء الفرنج، في خلال بضعة شهور. وكانت حماستهم عظيمة، فلم ينتظروا الموعد المحدّد للزحف الصليبي العام، بل استبقوا الأمور وزحفوا نحو الشرق، دون نظام وانضباط وتدريب. فلقي أكثرهم حتفه على أيدي البلغاريين والهنغاريين قبل أن ترى عيونهم القسطنطينية. دعا الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس إلى المبادرة بإجلائهم عن الأماكن المجاورة للعاصمة، نظراً لما ارتكبه هؤلاء من سرقات لا حدّ لها، إذ اقتحموا القصور والمنازل الواقعة في ضواحي القسطنطينية، بل إنهم سرقوا مادة الرصاص من سقوف الكنائس. وبعد أسبوع من وصول بطرس الناسك إلى العاصمة، بدأ الإمبراطور بنقل الفرنج إلى الساحل الآسيوي من البوسفور. وقد أسكنوهم مجموعات في مخيم على الساحل الجنوبي من خليج نيقوميديا على بعد 35 كلم إلى الشمال الغربي من مدينة نيقيا[1]، في مكان يُدعى تشيڤيتوت (Civitot)، في ضواحي هيلانوبوليس .(Helanopolis) وذلك نظراً لخصوبة المنطقة ولسهولة ما يجلب إليها من المؤن بحراً من القسطنطينية. كان معسكر تشيفيتوت يقع على حدود بلاد السلاجقة الروم. ولقد استقرّ هؤلاء الفقراء هناك لمدة شهرين تقريباً، يستمتعون بالمؤن الوفيرة من جميع الأصناف والأنواع. وحصلوا على الفرصة الضرورية للتعافي والنقاهة من تعب الطريق[2]. انتهز هؤلاء الفقراء الفرصة السانحة وانطلقوا كالجراد في أرباض

(1) الصوري وليم، م.س، ص 178.
- زابوروف، م.س، ص 58.
- رنسيمان، م.س، ص 180.

(2) الصوري، وليم، م.س، ص 186.



خارطة الحملة الصليبية الأولى



القسطنطينية وضواحيها زمن الحملة الصليبية الأولى

المدينة، ونهبوا القرى والبلدات وساقوا القطعان والمواشي والحيوانات. ووصلت رسائل تحذيرية متوالية من الإمبراطور أمرهم فيها توخي الحذر وعدم المغامرة بعيداً خارج حدود معسكرهم. وأمرهم بالانتظار حتى وصول القادة الصليبيين الكبار، كما طلب منهم عدم إثارة السلاجقة ضدهم.

وفي منتصف أيلول، زحفت مجموعة منهم، قوامها سبعة آلاف من الفرنسيين وثلاثمائة من الفرسان بقيادة جفري، باتجاه نيقية، عاصمة السُلطان السلجوقي، قلج أرسلان، فخرجت عليهم قوة من الجيش السلجوقي، جميعها من مهرة الرُماة، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحملة الصليبية الأولى. وكان ولتر المفلس من بين القتلى، أمّا بطرس الناسك، فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التي لا تخضع لقيادته، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية، وأقام فيها سالماً حتى عام 1115[1].

2- وصول الموجة الصليبية الثانية إلى آسيا الصغرى (1097)

21- توطئة

في بداية القرن العاشر ظهر التفكك في الوحدة الإسلامية، كدين ودولة. ففي أواخر القرن الحادي عشر، كان السلاجقة الأتراك والتركمان، وهم من السنّة، يسيطرون سيطرة تامة على آسيا الصغرى وشمالي سوريا. أمّا مصر وفلسطين وسوريا الجنوبية، فكانت تحت حكم الفاطميين، وهم من الشيعة. وكان في داخل الخلافة العباسية، أمراء يحكمون إمارات صغيرة ومقاطعات تكاد تكون مستقلة عن بغداد، بعضهم من التركمان السلاجقة وبعضهم من العرب. وأدّى التنافس والعداء بينهم

(1) رنيسمان، م.س، ص 200.

- الصوري وليم، م.س، ص 186 -187.

والتنابذ ومشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكام والأمراء المنشقين، إلى فوضى سياسة وإلى حالة دائمة من القلق والاضطراب.

كتب فيليب حتي عن هذا الوضع ما يأتي:[1]

«أمَّا المنطقة الجبلية، فقد كانت ملجأ للفرق الإسلامية المنشقة والطوائف المسيحية المختلفة: النصيرية بالقرب من اللاذقية. وإلى الشرق منهم جماعة الحشاشين الإسماعيلية، والموارنة في شمالي لبنان، والدروز في جنوبه، وبينهما الشيعة. ومما زاد في حدة الفوضى، سيل مستمر من الأعراب (البدو)، الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقرّوا في المناطق الزراعية أو في المراكز العسكرية، وسيل آخر من الأكراد، ومن التركمان، للانخراط في جيش الأمير أو الحاكم، الذي يمنحهم خير الجزاء».

إن التجزئة السياسية لبلاد الشام، وتعدد المذاهب، قد فتحا الباب على مصراعيه للاجتياح الصليبي. والجدير ذكره أنه عندما امتدّت الموجة الصليبية الثانية (1098) نحو الجنوب، بعد انتزاع نيقية وإنطاكية من أيدي السلاجقة، استُقبلت في سوريا ولبنان وفلسطين بعطف من جانب المسيحيين.

22- وصول الصليبيين إلى آسيا الصغرى (1097)

بينما كانت الموجة الصليبية الأولى تتخبط على أبواب آسيا الصغرى، كان الزعماء والإقطاعيون في أوروبا وخاصة في فرنسا، الذين حملوا الصليب، قد جمع كل منهم رجاله في إقطاعته. **وانضم كثيرون من الأشراف والنبلاء إلى صفوف المقاتلين، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة.** وبهذا كانت الحملة الصليبية الأولى في الأغلب الأعم مغامرة فرنسية. ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى اليوم، إذا ذكر غربي أوروبا، سماه

---

(1) حتي، فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ص 342.

بلاد الفرنجة أو الافرنج[1]. ومن بين زعماء هذه الحملة، كان الدوق جودفري سيد بوّيون (Godfrey de Bouillon) وهي مقاطعة صغيرة في بلجيكا، والكونت الإيطالي بوهمند من سادة تارونتو (Taranto) ابن روبرتو جسكاردو، ومعه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلي (Tancred de Hauteville) الذي كان يمثل في نظر الناس المثل الأعلى للفارس المسيحي. وأيضاً كان ريموند كونت تولوز الذي كان قد حارب في إسبانيا ضد المسلمين. وعندما تقدّمت به السن وهب ثروته الكبيرة إلى حرب أكبر وأوسع.

سارت هذه الحملة إلى القسطنطينية من طرق مختلفة، وعرض بوهمند على جوفري أن يستوليا على القسطنطينية، لكن الأخير رفض العرض، لأنه لم يأت، على حد قوله، إلاّ لقتال غير المسيحيين[2].

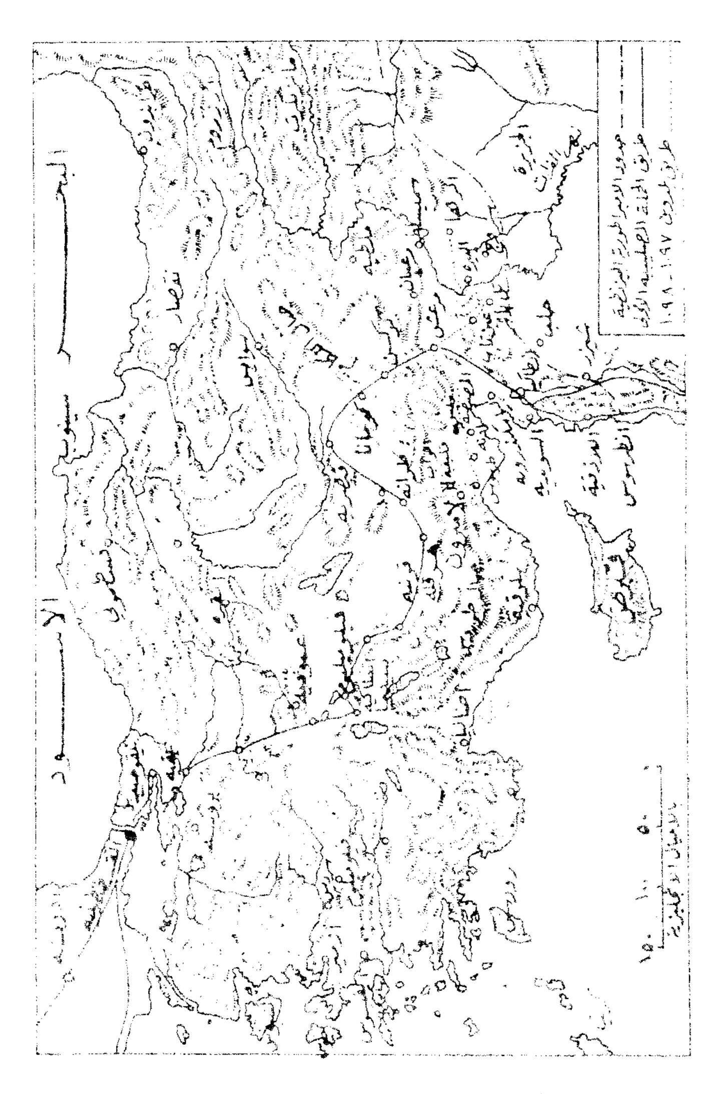
وصول الموجة الصليبية الثانية هذه، لم تعجب الإمبراطور البيزنطي، لأنه استنجد بالغرب المسيحي على المسلمين، لكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوروبا على أبواب عاصمته، فقد خاف عليها من أطماع هؤلاء القادة. أمام هذا الواقع عرض عليهم المؤن والأموال ووسائل النقل والمساندة الحربية، كما عرض على زعماء الحملة رشاوى سخية لقاء أن يقسموا يمين الولاء له بصفته سيدهم الإقطاعي، وأن تكون كل الأراضي التي سيستولون عليها، إقطاعيات مُنحت لهم من الإمبراطور نفسه[3]، وقد أقسم العديد منهم يمين الولاء هذه.

---

(1) قصة الحضارة، مرجع سابق، ج 15، ص 20.

(2) المرجع نفسه، ص 21.

(3) المرجع نفسه.



خارطة آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى

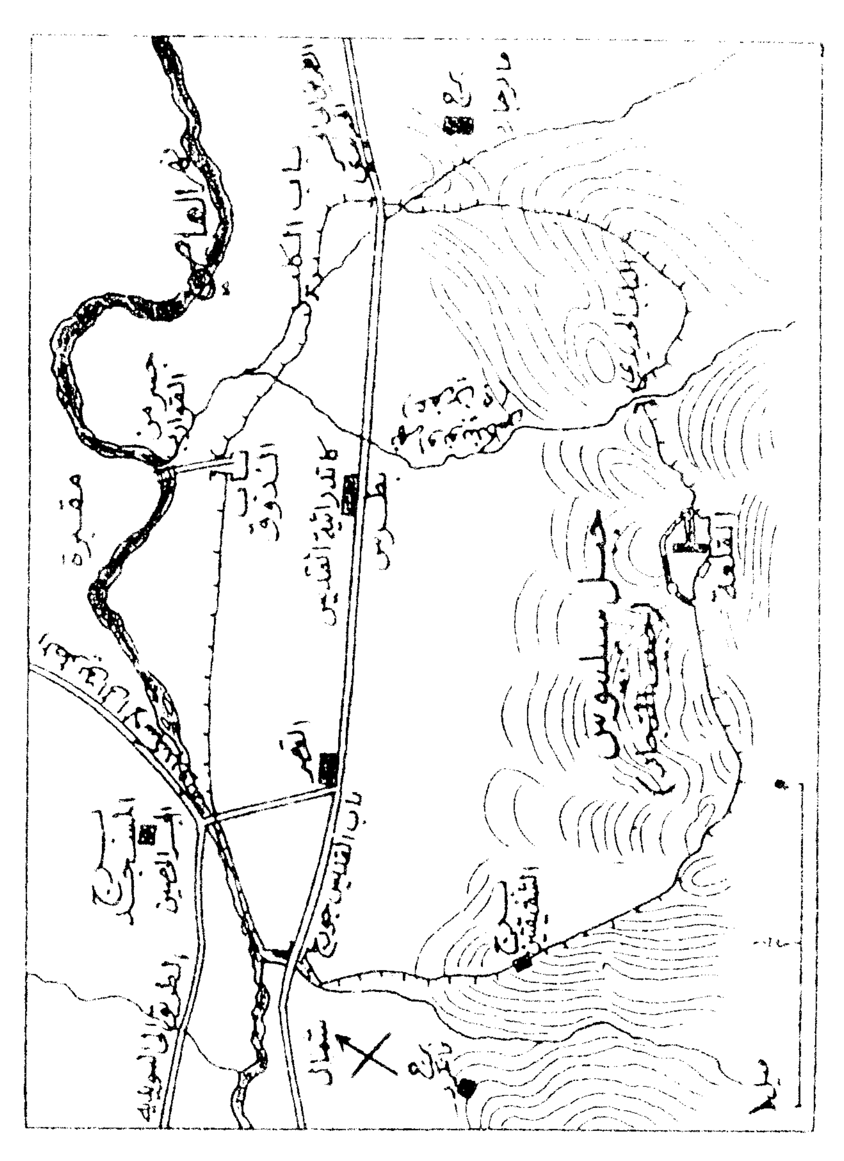
وفي العام 1097، عبرت هذه الجيوش، البالغ عددها نحو /30/ ألفاً، المضيقين، وكانت لاتزال غير موحدة القيادة. وعلى الفور خرجت أرمينيا المسيحية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الصليبيين. زحفت هذه القوات وحاصرت نيقية عاصمة سلاجقة الروم، فاستسلمت حاميتها بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياة مقاتليها (تموز 1097). ورُفع علم الإمبراطورية على حصنها الأمر الذي حمى المدينة من النهب، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا بالسخية، ولكن الجنود الصليبيين اتهموا الإمبراطور بالخيانة مع السلاجقة. استراح الفرنجة في المدينة أسبوعاً ثم زحفوا باتجاه إنطاكية، فالتقوا، في الأول من تموز 1097، عند دوريليوم[1] بجيش سلجوقي يقوده السُلطان قلج أرسلان. وقعت المعركة بين الخصمين وانتصر الصليبيون انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء. بعدها اخترقوا آسيا الصغرى دون أن يلقوا أية مقاومة تذكر، إنما لقوا عدواً آخراً هو قلة المياه والطعام والحر الشديد، فمات عدد كبير من الرجال والنساء والخيل والكلاب من العطش في أثناء هذا الزحف الشاق (حوالي 750كلم). ولما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسي: فسار ريموند وبوهمند وغودفري إلى أرمينيا، وسار تانكرد وبلدوين، شقيق غودفري إلى الرها حيث أسس بلدوين أولى الإمارات الصليبية في الشرق (1098). بعدها عاد النبلاء إلى الجيش الرئيسي وواصلت القوة بأجمعها الزحف على إنطاكية[2].

وفي 21 تشرين الأول 1097، وصلت قوات الصليبين الرئيسية إلى مشارف إنطاكية. وعندما اقتربت من المدينة شرع أميرها ياغي سيان في

---

(1) تقع على مسافة ميلين إلى الشمال الشرقي لمدينة «أسكي شهر» الحالية في تركيا.
- رنسيمان، م.س، ص 281.

(2) معارك العرب، دار نوبليس للنشر، بيروت 2007، ج 16، ص 85.



خارطة انطاكية زمن الحملة الصليبية الأولى

اتخاذ تدابير مشدَّدة: ألقى القبض على البطريرك الانطاكي وزجّه في السجن. وطرد عدداً كبيراً من الزعماء المسيحيين، ولاذ آخرون بالفرار. وتعرّضت كاتدرائية القديس بطرس للتخريب وحوّلها ياغي سيان إلى إسطبل لخيول الأمير الحاكم[1].

وكانت أنطاكية «مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن». حاصرها الصليبيون حوالى ثمانية شهور قاومت خلالها بشراسة. ومات في خلال الحصار كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء والبرد القارس والجوع، وقد وجد بعضهم غذاءً جديداً بامتصاص «القصب ذي النكهة الحلوة فسموه زكرا Zucra» (وهي كلمة مشتقة من لفظ عربي هو السكر). ففيها ذاق الصليبيون السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير إحدى النباتات القصبية المزروعة. وقدَّمت العاهرات للفرنجة متعاً أشد خطراً من السُكر، من ذلك أن أحد الصليبيين قتله السلاجقة وهو يضاجع عاهرة انطاكية[2]. وجاءت الأنباء في شهر أيار 1098، تفيد أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده أمير الموصل كربوغة، يقترب من إنطاكية التي سقطت في أيدي الفرنجة في 3 حزيران 1098، قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام. وخشي كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة هذا ففروا، بواسطة سفن في نهر العاصي هاربين .

وزحف الإمبراطور ألكسيوس بقوة من جيش الروم، لكن الفارّين أدخلوا في روعه أن الصليبيين قد هُزموا، فعاد أدراجه ليدافع عن آسيا الصغرى، ولم يغفر له الفرنجة هذا التصرّف. وفي هذه الأثناء ولرفع معنويات الصليبيين في إنطاكية، أدعى راهب من مرسيليا

---

(1) رنسيمان، م.س، ص 323.

(2) قصة الحضارة، ج 15، م، س، ص 23.

هو بطرس بارثيلميو (Pierre Bartholomeo) أنه عثر على الحربة التي نفذت في جنب السيد المسيح. ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علمٌ مقدس، وخرج 3 فرسان من بين التلال في ثياب بيضاء حين ناداهم الموفد البابوي ادهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس وتيودور وجورج. وبعث ذلك في قلوب الفرنجة روحاً جديدة، وتولّى بوهمند القيادة الموحّدة فانتصروا انتصاراً حاسماً. أتُّهم الراهب بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية، وعرض أن يرضى بحكم الرب فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه. اخترق النار وخرج سالماً في الظاهر، لكنه توفي في اليوم التالي من أثر الحروق أو الإجهاد الذي لم يحتمله قلبه[1] فأزيلت هذه الحربة من بين أعلام الجيش الصليبي.

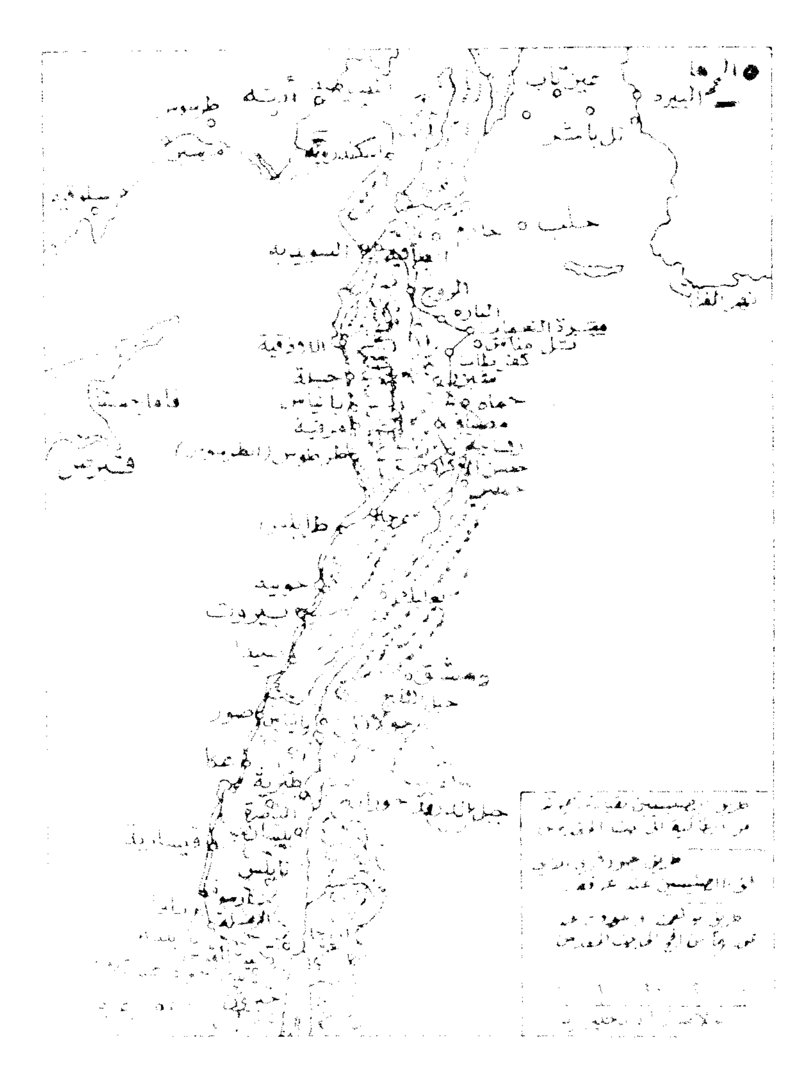
وبعد هذا الانتصار أصبح بوهمند أميراً على إنطاكية اعترافاً بفضله وخضع للامبراطور الكسيوس، لكنه أخيراً أعفى نفسه من يمين الولاء لهذا العاهل البيزنطي.

قضى الجيش الصليبي الرئيسي حوالي ستة أشهر في إنطاكية، معيداً فيها تنظيم قواته وتجديد نشاطه، ثم زحف الصليبيون بجيوشهم باتجاه القدس. وفي طريقهم إليها استولوا على معرَّة النعمان وعلى قريتي البارة والروج. ودخلوا الأراضي اللبنانية. وكان الفاطميون قد استولوا نهائيًا على فلسطين في آب 1098 ووسّعوا حدودهم إلى ممر نهر الكلب في لبنان. ثمّ عمدوا إلى إصلاح وترميم أسوار القدس واستحكاماتها[2]. وقد أدرك الوزير القاضي الفضل حتمية الصدام مع الصليبيين لذلك بذل جهده لتجنّبه.

---

(1) المرجع السابق، ص 24.

(2) معارك العرب، م.س، ص 170.



خارطة بلاد الشام زمن الحملة الصليبية الأولى

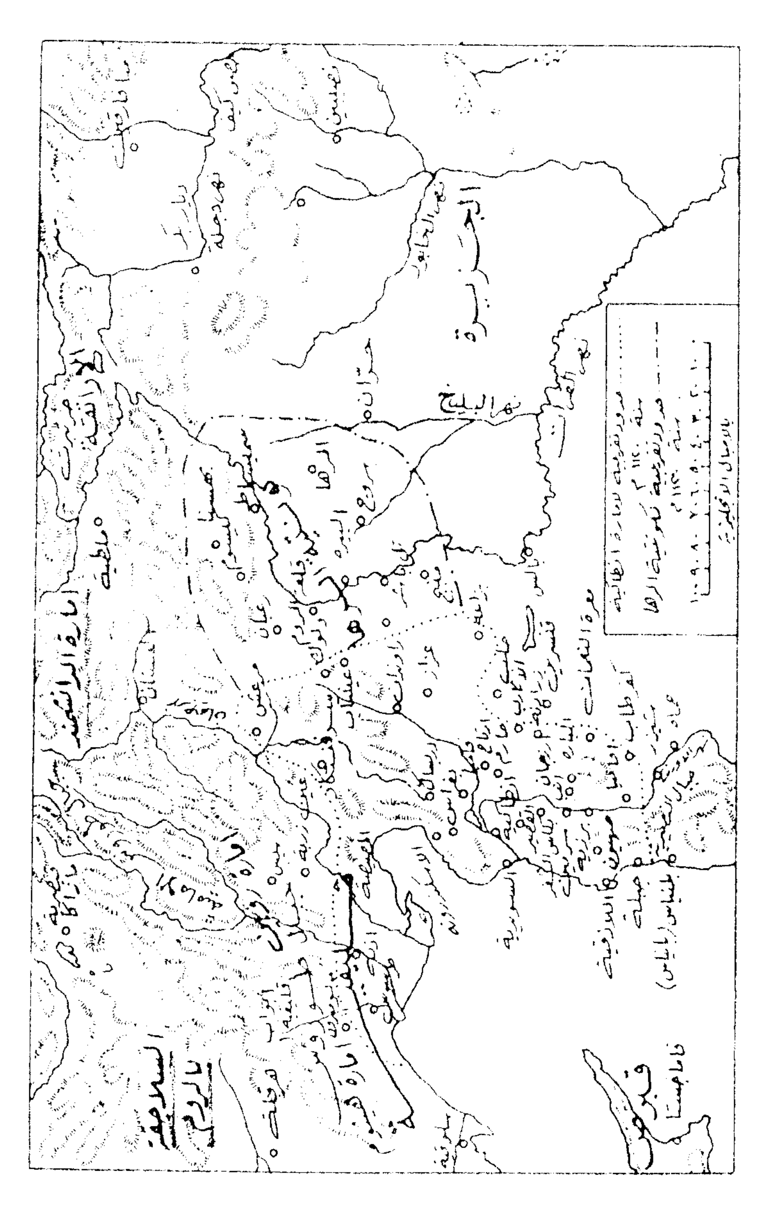
لقد حاول أن يعرض عليهم شرطاً يناسبه تماماً من وجهة نظره، وهو حرية الدخول إلى القدس من قبل الحجاج النصارى العزّل في جماعات مؤلفة كل منها من مئتين إلى ثلاثماية حج، والعودة بسلام بعد الزيارة والصلاة[1].

اعتبر الفرنجة هذه الرسالة إهانة لهم، فلم يوافقوا على هذه الشروط المخزية وقرّروا الزحف إلى القدس «كجيش واحد متحد يتقدم بشكل مثالي والرماح مرفوعة إلى الأعلى»[2]، وهذا سيؤدّي حتماً إلى الصدام العسكري في غير مكان.

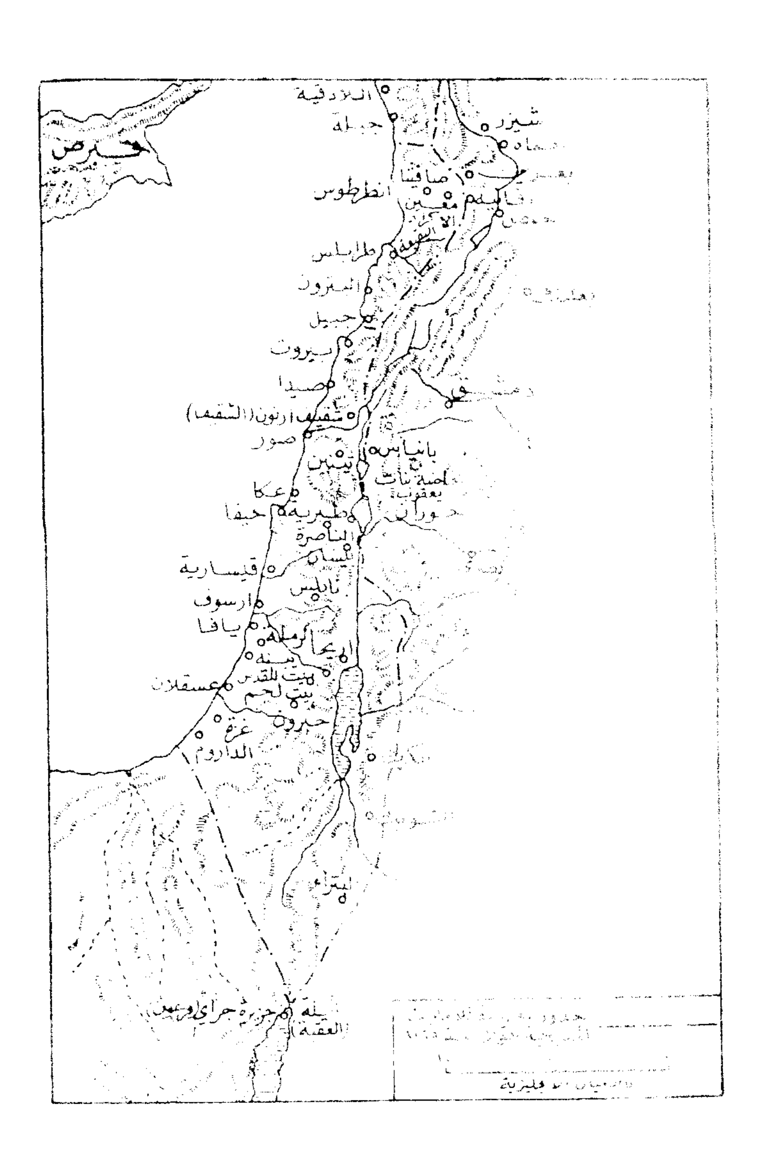
قسّم الصليبيون قواتهم وجموعهم إلى رتلين كبيرين: الأول بقيادة كونت تولوز، سار شرقي جبال النصيرية، والثاني بقيادة غودفرى دي بويون وروبير الفلمنكي، تقدم بمحاذاة الساحل. أمام هذا الواقع أرسل حاكم طرابلس جلال الملك، وحكام بيروت وصيدا وصور، إلى قادة الفرنجة شتى الهدايا والنقود والمنتوجات الغذائية وبراميل مياه الشفة وأرسلوا البعثات للتفاوض عارضين على هؤلاء حرية العبور دون عوائق، في ممتلكات أمرائهم الراغبين في وقاية مدنهم وبلداتهم وضواحيها، والكروم الغنية وبساتين الخضار والفاكهة، من ضراوة وكثرة القطعان الفرنجية وجشعها. وهكذا لم يلقَ الصليبيون أية مقاومة تذكر[3]، سوى في طرابلس حيث حاول حاكمها التصدي لهم، فشنّوا فوراً، ضد المدينة هجوماً عنيفاً فألحقوا «الاضطراب والفوضى بالقوات الإسلامية هناك وأجبروها على الفرار». وكانت حصيلة المعركة هذه مقتل سبعماية رجل من أفراد الحامية وأربعة من الفرنجة.

(1) الصوري، وليم، م.س ج 2، ص 394.
(2) Maalouf, Amine, les Croisades vus par les Arabes , Ed, j'ai lu, Paris, 1983, p. 65.
(3) زابوروف، م.س، ص 120.

- Maalouf, op ,cit, p. 60.



شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي



جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

تابع الفرنجة زحفهم، يتقدمهم الرماة الموارنة اللبنانيون الذين انحدروا من جبالهم المنيعة في الشمال، فكانوا أدلاء لهؤلاء بسبب معرفتهم بسائر الأرياف المجاورة والطريق الأسلم والأسهل إلى القدس، إلى جانب مؤازرتهم بالقتال. عند وصول الفرنجة إلى منطقة نهر الكلب، الحد الفاصل بين إمارة «بنو عمّار» والفاطميين، وضعوا أنفسهم في حالة حرب مع الخليفة الفاطمي في مصر(1).

ومن نهر الكلب زحف الصليبيون جنوباً إلى بيروت وخيموا بين البساتين المجاورة لنهر بيروت من الجهة الشمالية، حيث عرض عليهم حاكم المدينة الفاطمي المال وكميات كبيرة من المؤن. وفي اليوم التالي وصلوا إلى نهر الأولي القريب من صيدا حيث راح حاكمها يزعجهم بغارات متتالية على قواتهم فهاجموها وقتلوا عدداً كبيراً من رجالها وأجبروا الباقين على الانسحاب إلى داخل المدينة(2).

تابع الفرنجة زحفهم نحو صور فعكا فاللدّ والرملة ومن هناك إلى أرسوف ومنها إلى القدس، وأثناء التقدم استولوا على بيت لحم وثبتوا رايتهم على مسلّة كنيسة القديسة مريم العذراء في البلدة(3).

وفي السابع من حزيران 1099، اقترب الصليبيون من القدس، وقد بانت لهم المدينة بأسوارها وأبراجها من الجبل العالي، المشرف عليها، وقد أطلقوا على هذا الموقع إسم «جبل الفرح» (Mont Joie).

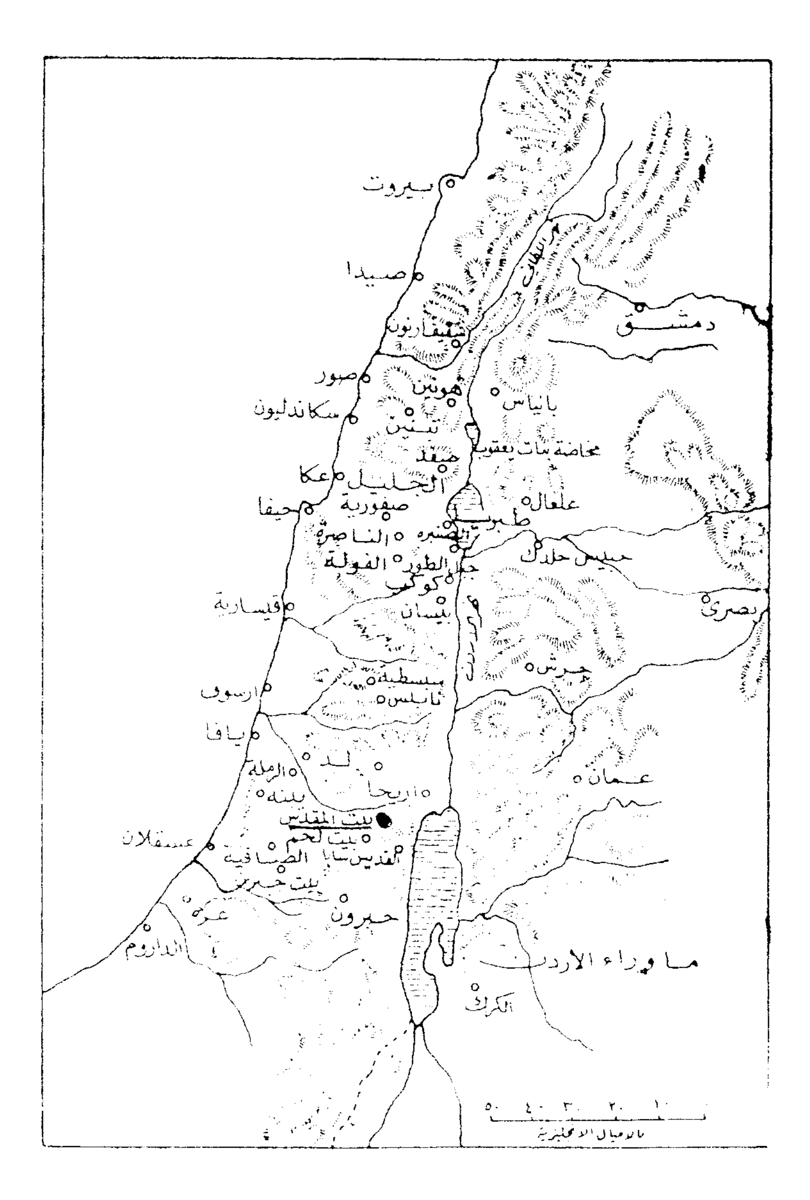
فوجئ افتخار الدولة حاكم القدس باقتراب هذه الجموع اللجبة، وأدرك قوتها فعمد إلى وضع «السم في الآبار والينابيع المجاورة» وأخرج المسيحيين من المدينة، وعهد بحراسة الأسواق

---

(1) Maalouf, op. cit, p. 61.

(2) الأمين، حسن، غارات على بلاد الشام، دار قتيبة، ط.1، بيروت عام 2000، ص 60.

(3) زابوروف، م.س، ص 120.



مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي

إلى جماعة من العرب المسلمين والسودانيين[1].

حاصر الصليبيون القدس وقاومت حاميتها الفاطمية، المؤلفة من ألف مقاتل، الحصار مدة أربعين يوماً. فلمّا حلّ اليوم الخامس عشر من تموز قاد غودفري وتانكر رجالهما وتسلّقوا أسوار المدينة. وتمّ للفرنجة الفوز بهدفهم بعد أن لاقوا في سبيله الأمرّين.

لقد انطلق الصليبيون في ذلك اليوم وتلك الليلة في شوارع القدس، يقتلون كل من يصادفونه من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. «وحينما توجّه ريمون دي سان جيل في ضحى اليوم التالي لزيارة ساحة المسجد الأقصى، أخذ يلتمس طريقه بين الجثث والدماء»[2].

لقد تركت هزيمة القدس أثراً عميقاً في جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك. وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدّت إلى خلو المدينة من المسلمين.

بعد ثلاثة أيام توجه قادة الحملة الصليبية في موكب اتسم بالخشوع، إلى الحي المسيحي المهجور، منذ أن أبعد افتخار الدولة سكانه عن المدينة، ليؤدوا صلاة الشكر في كنيسة القيامة[3] فقاموا بهذا الواجب الديني في المدينة التي عرفت مخلصهم يسوع المسيح.

3-المملكة اللاتينية (1099)

بعد سقوط القدس بيد الصليبيين، في تموز 1099 شعر البعض منهم أن نذورهم قد وُفيت، وأن الغاية الرئيسية التي أتوا من أجلها إلى الشرق قد تحققت، فقفلوا عائدين إلى ديارهم الأوروبية بعد أن ملّوا حياة الحرب والتشرّد والسفر.

وفي القدس أسَّس الصليبيون،

(1) الأمين، م.س، ص 160.

(2) رنسيمان، م.س، ص 426.

(3) زابوروف، م.س.، ص 124.

المملكة اللاتينية ونصّبوا عليها غودفري دي بويون الفرنسي ملكاً، وقد لقّب بهذا اللقب المتواضع: «حامي الضريح المقدس». ولم يدّعِ الحاكم الجديد أنه خاضع للإمبراطور البيزنطي. ولهذا أصبحت هذه المملكة من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة. وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسي الشرقي، وفرّ البطريرك اليوناني إلى جزيرة قبرص، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية، والخضوع للبابوية في روما[1].

بعد شهر تقريباً من سقوط القدس، اضطر الصليبيون إلى امتشاق السلاح من جديد. فمن الجنوب، كان الوزير الفاطمي الأفضل، على رأس ثلاثين ألفاً من قواته، يتقدم ببطء مقصود نحو الحدود الفلسطينية التي لم يصلها إلا بعد عشرين يوماً من هزيمة حاكم القدس، افتخار الدولة[2].

كانت القوّات الفاطمية تفتقر إلى العتاد اللازم للحصار. ومع هذا فقد أرسل بعثة إلى القدس للتفاوض ولسبر نوايا الفرنجة. هاجم الجيش الصليبي القوات المصرية في عسقلان وهزمها هزيمة ساحقة. كتب المؤرِّخ العربي ابن القلانسي: «وتمكنت سيوف الفرنج من المسلمين.. ولم ترحم لا مشاتهم ولا متطوعيهم ولا سكان المدينة.. لقد خسر المسلمون عشرة آلاف قتيل»[3]. وفي 13 آب 1099، عاد الصليبيون إلى القدس مثقلين بالغنائم في موكب الظافر المنتصر.

تألفت المملكة اللاتينية من أربعة أقسام رئيسية هي: مملكة القدس - إمارة طرابلس - إمارة إنطاكية- إمارة الرها.

(1) معارك العرب، م.س، ص 17، ص [illegible].
- قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 26.

(2) Maalouf, op. Cit, p 70.
- الصوري وليم، م.س، ج 3، ص 458 -459.

(3) Maalouf. Op . cit, p 71.

وبعد سنة من إنشاء المملكة توفي ملكها غودفري (1100) وخلفه أخوه بلدوين وهو أقل منه كفاءة (1100-1118)، واتَّخذ لنفسه لقباً أسمى من لقب شقيقه وهو لقب ملك. وشملت المملكة الجديدة في عهد الملك فولك (Fulk) كونت أنجو (1131 - 1143) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا. وقد جُزِّئت كل إمارة إلى إقطاعات تكاد كل منها أن تكون مستقلة عن الأخرى، وكان سادتها المتحاسدون يشنّون الحروب بعضهم على بعض، ويسكّون العملة. **وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك، وتقيّده سلطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه** .ومما أضعف سلطان الملك أنه أعطى عدة موانئ ومدن: يافا - صور - عكا - بيروت - وعسقلان، إلى البندقية وبيزا وجنوى، على أن تقدّم للمملكة معونة حربية وما تحمله مراكبها من مؤن. وكانت المحاكم العليا في القدس هي التي تضع أنظمة المملكة وقوانينها .**وادَّعى الأشراف ملكية الأرض جميعها، وانزلوا مالكيها السابقين منزلة أرقاء الأرض. وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذٍ في أوروبا**[1].

كانت مملكة القدس تتلقى معونة كبيرة من نظام الرهبان المحاربين. ذاك أن تجار أملفي (Amalfi) كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام 1048، على إذن ببناء مستشفى في القدس لإيواء الفقراء والمرضى والحجاج. ثمّ نظّم ريمون دي پوي (Raymond du Puy) رهبان هذه المؤسَّسة تنظيماً جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرسّ حياتها للعفة، والفقر، والطاعة، وحماية المسيحيين في فلسطين بالدفاع عنهم دفاعاً عسكريًّا. **ومن ثم أصبح هؤلاء فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل المؤسسات الخيرية في العالم المسيحي. وفي عام 1119، استحصل تسعة رهبان من فرسان الفرنجة، من**

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 27.

الملك بلدوين الثّاني على مسكن لهم بالقرب من هيكل سليمان وسرعان ما أطلق عليهم اسم «فرسان المعبد». وهؤلاء نذروا أنفسهم للرهبنة وخدمة المسيحيين عسكريًّا. وقد وضع لهم القديس برنار نظاماً صارماً، لم يطيعوه زمناً طويلاً. وكانوا أكثر الناس علماً بفن الحرب. وقد ساهم هؤلاء كثيراً في تمريض ومداواة الحجاج لكنهم انتقلوا من هذه المهمة إلى مهمة الهجوم على حصون المسلمين. وكان لهم شأن ظاهر في معارك الحروب الصليبية، وذاعت شهرتهم الحربية. وقد قاموا بحملة واسعة لجمع المال، فتوالت عليهم الإعانات من الكنيسة والدولة، ومن الأغنياء والفقراء على السواء، فلم يحلّ القرن 13 حتى كانوا يمتلكون في أوروبا قرى واسعة تشمل أديرة ودساكر وبلدات .**وفي عام 1190 أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيتون بمعونة عدد قليل من الألمان في بلادهم الأصلية، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا.**

عاد معظم الصليبين إلى أوروبا بعد سقوط القدس، فنقص بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعزعة الأركان نقصاً يعرّضها للخطر الشديد. ووفد على المملكة اللاتينية كثيرون من الحجاج ولكن قلّما بقي فيها عدد منهم للقتال.

في هذا الوقت كان البيزنطيون يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة إنطاكية والرها وغيرهما من المدن التي كانوا يدّعون أنها مدن بيزنطية. وأخذ المسلمون في الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات الصليبية على ممتلكاتهم ومدنهم وقراهم. وفي أحد الأيام اقتحمت جموعهم مسجد بغداد وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر القدس «الشريف» وقبة الصخرة من أيدي «الصليبيين». وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء .**ولكن عماد الدين زنكي أمير الموصل لبّى الدعوة، وزحف بجيشه في العام 1144 نحو أراضي المملكة اللاتينية وانتزع منهم المعقل الخارجي الشرقي، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمّها إلى عالم**

الإسلام واغتيل عماد الدين فخلفه ابنه نور الدين زنكي، وكان يماثله في شجاعته، ويفوقه في قدرته. وكانت أخبار هذه الحوادث هي التي أثارت أوروبا المسيحية ودفعتها إلى إرسال حملة صليبية ثانية(1).

4- الحملة الصليبية الثانية (1146 - 1148)

ما أن وصل خبر سقوط إمارة الرها، حتى عمّ الحماس والنَّشوة العالم العربي والإسلامي. وأُطلقت الألقاب والصفات الحسنة على عماد الدين زنكي. وتوقع المسلمون أن يكون هدفه الثاني اللاحق هو القدس. ومن الألقاب التي مُنحت للأتابك كانت: الملك المنصور - زين الإسلام- نصير أمير المؤمنين- الكبير- الوحيد- دعامة الدين - حجر زاوية الإسلام - حامي الخليفة- عظيم الأمة - شرف الملوك - سند السلاطين- المنتصر على الكفرة - قائد الجيوش الإسلامية الأعظم- الملك الظافر - ملك الأمراء - شمس الدولة - أمير العراقين وسوريا - فاتح بلاد الفرس - إلى آخره(2).

وفي العام 1145، استولى على سروج، ثاني حصون الصليبيين الكبيرة الواقعة شرقي نهر الفرات مع العلم أن الرها استطاعت وخلال نصف قرن، أن تقطع طرق المواصلات بين حلب والموصل، وأن سقوطها زاد في إضعاف الروح المعنوية عند الصليبيين وأثار خوفهم وقلقهم. كما أنه كان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب أوروبا، إذ أدركوا لأول مرة، أن الأمور أصبحت سيئة في الشرق، فنهضت حركة تدعو إلى حملة صليبية جديدة(3).

(1) معارك العرب، م.س، ج 17، ص 24.

- قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 29.

(2) Maolouf op. cit, p 162. (عن القلانسي).

(3) رنسيمان، م.س، ص 383.

استغاث القديس برنار بالبابا يوجينيوس III ليبادي مرة أخرى لحمل السلاح والاتجاه نحو الشرق، لكن البابا هذا طلب من برنار نفسه أن يقوم بالدعوة، فوافق على الطلب وخرج من صومعته في كليرڤو (Clairvaux) ليدعو الفرنسيين إلى الحرب. فخفتت أصوات الشك في صدور المؤمنين، وزالت المخاوف التي نشرتها الشائعات التي كانت تروى عن الحملة الصليبية الأولى **وذهب برنار إلى الملك لويس السابع وأقنعه بالحملة الجديدة، ثمّ وقف والملك إلى جانبه وراح يخطب في الجمع** الحاشد في ڤيزلاي (Véselay) عام 1146، ولم يكد يتمّ خطبته حتى تطوع الجمع كله، وعندما تبيّن أن ما كان معداً من الصلبان لا يكفيهم، مزّق القديس مئزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات وكتب إلى البابا يقول:

«الحصون والمدن قد خجلت من سكانها، ولم يبقَ إلاّ رجل واحد لكل سبع نساء، وترى في كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء»[1].

بعد فرنسا انتقل برنار إلى ألمانيا واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كنراد II بأن الحملة الصليبية هذه هي القضية الوحيدة التي يستطاع بها توحيد الأحزاب المتنافرة والتي كان نزاعها يمزق الدولة تمزيقاً. وانضوى كثيرون من النبلاء الألمان تحت لواء الإمبراطور كنراد، ومن بينهم الشاب فريدريك السوابڤا (Frederik Swabfa) الذي أصبح في ما بعد الإمبراطور بربوسا (BarBarossa) والذي مات غرقاً في آسيا الصغرى في الحملة الصليبية الثالثة.

وفي يوم عيد الفصح من عام 1147، بدأ كنراد والألمان سيرهم نحو الشرق وتبعهم الفرنسيون في يوم عيد العنصرة، وكانوا يسيرون بحذر على مسافة من كنراد وجيشه، لأنهم لم

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 30.

يكونوا واثقين أيهما أشد الأعداء لهم: الألمان أم السلاجقة الأتراك[1]. وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين السلاجقة والبيزنطيين، **وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التي نهبت في طريق الزاحفين أن أغلقت كثير منها أبوابها في وجوههم، ولم تقدم لهم إلا القليل من المؤن، أنزلها الناس في سلال من فوق الأسوار** .رفض كنراد ولويس عرض الامبراطور البيزنطي ألكسيوس بان تعبر الجيوش من المضيق عند سيستوس (Sestos) بدل ان تخترق القسطنطينية وطلب من لويس، عدد كبير من أشراف فرنسا، الاستيلاء على هذه العاصمة، لكنه لم يستجب لهذه الدعوة[2]. وقد أصرّ كنراد على أن يسير في الطريق التي سارت عليها الحملة الصليبية الأولى، مخالفاً نصيحة الإمبراطور البيزنطي[3]. **وتخبط الألمان في سيرهم على الرغم من مرشديهم أو لعلّ ذلك كان بفعل مرشديهم، فاجتازوا بطاحاً بعد بطاح خالية من موارد الطعام، ووقعوا في كمائن نصبها السلاجقة، ودبّ في قلوبهم اليأس لكثرة ما قُتل منهم.** وعند دورليوم، حيث هزم الصليبيون في الحملة الأولى، جيش قلج أرسلان، التقى الجيش الألماني بقوة السلاجقة الرئيسية، ومُني معها بهزيمة ساحقة، لم ينجُ فيها من الجيش الصليبي أكثر من عشرة بالمائة من عدده .**وقد وصلت إلى الجيش الفرنسي الذي كان يتقدم وراء الألمان شائعات عن انتصار كنراد، فتقدم بغير حذر، فقضى الجوع وهجمات السلاجقة على الكثير من رجاله** .ولما وصل إلى أضاليا راح الملك لويس يساوم رؤساء السفن اليونانية، على نقل جيشه بحراً إلى طوروس أو إنطاكية المسيحيتين، دافعاً أجوراً باهظة عن كل شخص حملته هذه

(1) المرجع السابق، ص 31.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

السفن. طبعاً لقد نقلت السفن ما كانت تستطيع نقله من الجيش والباقي بقي في أضاليا، فانقضّت جيوش السلاجقة على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين (1148)[1].

لقد وصل الملك لويس إلى القدس ومعه العدد الكبير من النساء وليس معه من الجنود إلا العدد الذي نقلته السفن، وكذلك كنراد. وحشد الملكان في هذه الفلول وممن كان في القدس من الجنود جيشاً كبيراً مرتجلاً جاهزاً للقيام بعمليات عسكرية.

وفي 24 حزيران 1148، عقد الصليبيون مجلساً كبيراً في مدينة عكا، وحصلت مناقشات مستفيضة بين الأعضاء، وتمّ الاتفاق «أنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الإقدام على حصار دمشق لأنها تشكل خطراً كبيراً عليهم. وهكذا يمكن قطع الصلة نهائيًا بين مسلمين مصر وأفريقيا ومسلمي بلاد الشام والمشرق العربي[2]. مع العلم أن إمارة الأنريين في دمشق هي التي انفردت عن سائر الممالك والإمارات الإسلامية بالحرص على الإبقاء على الصداقة مع الصليبيين. وكان من مصلحة الفرنجة الإبقاء على هذه الصداقة، حتى على الأقل سحق نور الدين زنكي. فالهجوم على هذه المدينة سيكون الوسيلة الأسلم لأن يرتمي حكامها في أحضان أتابك حلب[3].

وفي 24 تموز وبعد شهر من الاجتماع الفرنجي الكبير في عكا، زحف الجيش الصليبي باتجاه دمشق، وكانت قيادته موزعة بين كنراد ولويس وبلدوين الثالث (1143-1162). وهذا الجيش كان أضخم ما قذف به الصليبيون من جيوش إلى ساحة المعركة. ووصل الجيش الصليبي إلى داريا التي تبعد عن دمشق حوالي

(1) المرجع السابق، ص 32.

(2) معارك العرب، م.س، جزء 17، ص 35.

(3) رنسيمان، م.س، ج 2، ص 452.

أربعة أو خمسة أميال، وكان من السهل في هذا المكان رؤية المدينة والمنبسطات المحيطة بها [1]. في داريا وزّعت المهمات على فرق هذا الجيش، فمهمة ملك القدس بلدوين كانت التقدم بقواته في الطليعة وشق الطريق لبقية الفرق وراءه. والفرقة الثانية كانت في الرعيل الثّاني، كاحتياط ويمكنها تقديم المساندة الفورية للرعيل الأمامي. أمّا الفرقة الثالثة فكانت في الرعيل الثالث (المؤخرة)، ومهمتها، البقاء على استعداد لمقاومة القوات الإسلامية فيما لو قامت بهجوم من الوراء، وذلك لاتقاء عنصر المفاجأة [2].

عسكرت القوات الصليبية على تخوم البساتين التي تحيط بالمدينة والتي شكّلت وسيلة دفاعية كبيرة، حيث أن الأشجار كثيفة والممرات ضيقة للغاية. بعد ذلك وصلت قوات الصليبيين إلى أسوار المدينة.

تشاحن القادة الفرنجة بين بعضهم البعض حول مستقبل دمشق إذا تمّ الاستيلاء عليها. وتسرَّب عمال المسلمين إلى الجيش الفرنجي، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم «يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان». بدأ الطعام يخف في المعسكر الصليبي «وعمّ الشك وسيطر التوجّس عليهم من خيانة كبرى وضعت بفضل الأموال التي دُفعت» [3]. اجتمع القادة الصليبيون واقتنعوا أن هجومهم لاحظَّ له بالنجاح، فقرَّروا التخلي عنه والتراجع إلى فلسطين. وفي يوم الأربعاء، في 28 تموز من العام 1148، أي في اليوم الخامس لوصولهم أمام أسوار دمشق، قام الفرنجة بإزالة المعسكر والتراجع نحو الجليل في فلسطين. ولم تدعهم قوات أتابك دمشق، معين الدين إنر، يتراجعون في

(1) Nikita, Elisseeff, Nur Ad Din, Damas, Syrie, 3 volumes 1967, T2, p 419.

(2) الصوري، وليم، ج4، م.س، ص 780.

(3) االمرجع نفسه، ص 785.

هدوء وسلام، إذ ظلّ الفرسان التركمان، طوال ذلك اليوم، والأيام التالية، يضغطون على جناحي الجيش المتراجع ويمطرونه بوابل من النبال. وتناثرت جثث المقاتلين والخيل على امتداد الطريق، وقد أفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة تالية. وفي أوائل آب وصلت القوات الصليبية إلى فلسطين[1]. لم يطل الوقت حتى مرض كنراد ورجع مسربلاً بالعار إلى ألمانيا، وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا، أمّا الملك لويس فقد بقي في فلسطين سنة أخرى، حجّ فيها إلى الأضرحة المقدسة[2].

ارتاعت أوروبا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع، «وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جلّ جلاله أن يذلّ المدافعين عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير». وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالي متهوّر، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم .وردّ عليهم برنار بقوله: **«إن أساليب الله سبحانه وتعالى لا تدركها عقول البشر، وإن الوبال الذي حلّ بالمسيحيين ربما كان عقاباً لهم على ما ارتكبوه من ذنوب وخطايا»**.

5- الوضع العام الاجتماعي والعسكري في المملكة اللاتينية (1099-1187)

51- الوضع العام

بعد ما أسَّس الصليبيون مملكتهم وإماراتهم في الشرق، سيطرت عليهم عوامل البيئة الجديدة، فتكيّفوا معها فكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت في بلاد الشام المسيحية. فمنذ عام 1099، راح الصليبيون يتزيّون شيئاً فشيئاً بالزيّ الشرقي، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان مناخ هذه البلاد ذات الشمس الساطعة والرمال

(1) رنسيمان، ج2، م.س، ص 457.

(2) قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 33.

المحرقة .وزاد اتصالهم بمن جاورهم من المسلمين الأمر الذي خفّف التنافر والعداء بين العدوين اللدودين، فكانت فسحات من السلام والطمأنينة بينهما. وراح التجار المسلمون، يدخلون بكامل حريتهم أراضي الصليبيين ومدنهم وقراهم، ويبيعون أهلها بضاعتهم .**وكان المرضى من الفرنجة يفضّلون الأطباء المسلمين على غيرهم من المسيحيين واليهود**. وسمحت السلطات الصليبية للمسلمين أن يمارسوا شعائرهم الدينية في المساجد وأن يعلّموا أولادهم القرآن في المدارس الإسلامية القائمة في إنطاكية وطرابلس. **وتعهّد الاثنان بضمانة سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون بين المملكة اللاتينية والبلاد الإسلامية وبالعكس**[1].

ومع مرور الأيام والسنين اتخذ عدد كبير من الفرنجة زوجات سوريات، وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الإمارات الجديدة، وأصبحت اللغة العربية اللغة العامة للتخاطب اليومي للسكان. وكثيراً ما عُقدت تحالفات سياسية وعسكرية بين الأمراء من كلا المعسكرين ضد أمراء آخرين أيضاً من كلا المعسكرين. كما كان الحكام المسلمون في بعض الأحيان، يستعينون «بالمشركين» في شؤون السياسة والحرب. ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين الفرنجة والمسلمين. وقد وصف الرَّحالة ابن جُبير الذي طاف في المملكة الصليبية، في العام 1183، بني دينه «المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلقون معاملة طيبة وحسنة على يد الصليبيين». وكان مما ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان، تفوح منها رائحة الأوروبيين الكريهة»، ولكنه يأمل أن يتحضر الفرنجة بالحضارة التي وفدوا إليها والتي هي أرقى من حضاراتهم[2].

(1) المرجع السابق، ص 35.

(2) رحلة ابن جبير.

52- المناوشات العسكرية بين الزنكيين والفرنجة (1149 - 1188)

ظلت مملكة القدس اللاتينية خلال هذه الفترة في مناوشات مع المسلمين الزنكيين. فبعد العودة من حصار دمشق والشائعات التي روجت آنذاك عن رشوة أمير دمشق لملك القدس، أصبح وضع الفرنج في الشرق أكثر سوءاً بشكل واضح. ففي 11 كانون الأول 1148، فاجأهم نور الدين زنكي في يغراس واستولى على الكفر في جبل الزاوية جنوبي معرة النعمان مهدداً طريق أفاميا - إنطاكية. وفي منطقة إنب في 29 حزيران 1149، انتصر نور الدين وقتل أمير إنطاكية الصليبي ثمّ توجه نحو إنطاكية لمحاصرتها.[1] لكن الأهالي دفعوا له الأموال الطائلة والهدايا المتعددة للعودة عنها[2].

وفي هذه السنة أيضاً تمكن السلاجقة من أسر كونت تولوز قرب طرابلس، كما استولوا على أفاميا. وفي عام 1150، تمكن نور الدين من أسر الأمير جوسلين الصليبي الذي نُقل مكبلاً بالسلاسل الحديدية إلى حلب حيث أودع القلعة تحت حراسة مشدَّدة[3] ولم يطل الوقت حتى سمُلت عيناه وظلّ في السجن إلى أن مات بعد تسع سنوات (1159)[4].

لم يبقَ في الشرق سوى ثلاث دويلات فرنجية: إمارة طرابلس التي أصبحت فريسة لقتال دموي عائلي (مقتل الأمير ريمون II) ومملكة القدس التي كانت تعيش آنذاك ضمن دسائس

(1) معارك العرب، م.س، ج 17، ص 46 -47.

(2) رنسيمان، م.س، ص 59.

- Nikita, op. Cit, p 433, 434

(3) Nikita, op. Cit, p 433, 434

-الصوري، وليم، م.س، ص 793.

(4) معارك العرب، ج 17، م.س، ص 51.

ومكائد الأميرة ماليزند ضد الملك بلدوين (حرب أهلية عام 1152)، وإمارة إنطاكية التي خسرت الكثير من أراضيها. وقد تمدّدت الحدود الإسلامية بين الفرات والعاصي[1].

وهكذا ظلت المملكة اللاتينية تمزقها المنازعات الداخلية، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة.

وفي عام 1156 وقعت هزّات أرضية متعدّدة في سائر أنحاء بلاد الشام، دمّرت على ما يبدو العدد الكبير من القلاع والحصون، إن كان للمسلمين أو للصليبيين، وأكثر ما تضرر منها وادي نهر العاصي. وقد انصرف كل من المسلمين والفرنجة إلى إعمار كل ما تهدمّ وتخرَّب من هذه القلاع، فكفّوا فترة من الزمن عن التفكير بالقيام بحملات حربية بعضهم ضد البعض الآخر[2]. وفي تموز عام 1157، هاجم الصليبيون في الشمال عدة مراكز زنكية واستولوا عليها خاصة على العاصي. وبين 1157 و1158، هاجم الفرنجة قلعة شيزر على العاصي واستولوا عليها وأُهرقت الدماء بكميات كبيرة. بعدها استولوا على قلعة حارم.

وفي آذار من العام 1158، توجّه بلدوين بحملة عسكرية إلى أطراف دمشق ثمّ قام مع كونت فلاندر، بزحف مفاجئ على المدينة نفسها. وفي نيسان حاصرا قلعة داريا الموجودة في ضواحيها. أمام هذا الواقع تحرّك نور الدين من حلب باتجاه دمشق التي دخلها في السابع من نيسان. ثم راح يعيد تجميع قواته استعداداً لحملة جديدة ضد مملكة الفرنج في القدس[3]، خاصة بعدما علم بالمفاوضات الجارية بين بلدوين ملكها والإمبراطور البيزنطي. لذلك انتقل نور الدين مع جيشه من دمشق باتجاه

---

(1) Nikita, op, cit, p. 462

(2) مماثل، ص 513 -514.

(3) Nikita, op. Cit, p 525

الجنوب ومعه كمية كبيرة من عتاد الحصار وسار باتجاه جسر الخشب، بقعة تجمع القوات المغيرة هناك. ومنها اتجه نحو الجولان السوري في جنوبي بانياس. فحاصر قلعة تل حبيس على الضفة اليسرى لنهر اليرموك، هذه القلعة التي كانت تشرف على الجولان وتراقب كل تقدم عبره[1]. علم بلدوين بهذا الحصار، فجمع قواته وأسرع إلى هناك يرافقه كونت فلاندر، لكن نور الدين رفع الحصار واتجه نحو جسر بنات يعقوب على أمل مفاجأة الفرنجة الذين كانوا قد نصبوا له كميناً محكماً فنالوا منه وهرب جنوده في اضطراب وخلل.

بقيت الأمور على هذا المنوال حتى 1174، عام وفاة نور الدين زنكي. وبعد وفاته تمكّن صلاح الدين الأيوبي، أحد قادته الكبار، والذي كان وزيراً للخليفة الفاطمي وقد استلم الحكم في مصر، من أن يخضع لسلطانه مصر وسوريا منذ العام 1175. وفي هذه الأثناء، نشر تجار جنوى والبندقية وبيزا الفوضى والاضطراب في الثغور الشرقية بمنافستهم القاتلة. وفي القدس أخذ الفرسان يتنازعون فيما بينهم للاستيلاء على عرش المملكة اللاتينية. ولما استطاع غي دي لوزينيان أن يشق طريقه إليه بالختل والاحتيال في العام 1186، استاءت طبقة الأشراف، حتى قال أخوه جوفري: «إن يكن غي شقيقي ملكاً فحريٌ بي أن أكون إلهاً». ونصّب ريجينالد دي شاتيون (أرناط) نفسه أميراً مستقلاً في قلعة الكرك وراء نهر الأردن، على حدود بلاد العرب. وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك الصليبي وصلاح الدين، وأعلن عزمه على أن يغزو الجزيرة العربية ويهدّم قبر الرسول في المدينة المنوّرة، ويدكّ أبنية

---

(1) Op cit, p 526

- الصوري، وليم، م.س، ص 858.
- رنسيمان، م.س، ص 516.

الكعبة في مكة. وأبحرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين في البحر الأحمر، واتجهت نحو المدينة. وبوصوله إلى "واحة تيماء" التقى بقافلة لتجار عرب تسير باتجاه مكة، فانقض أرناط عليها واستولى على كل ما كانت تحمله من السلع التجارية[1]. وقد لقبه ابن الأثير بـ "أخبث شياطين الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين"[2]. اتصل صلاح الدين بالملك بلدوين (وكانت بينهما معاهدة سلام لمدة سنتين) عارضاً شكواه من التصرف المشين الذي قام به أرناط، وطالب بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بالتجار وبإعادة كافة السلع التي نهبت[3].

كان صلاح الدين قد اكتفى بشن بعض الغارات الصغيرة على المملكة اللاتينية. فلما رأى ما فعله أرناط ثارت حميته الدينية، فأخذ يُنظّم من جديد جيشه الذي قام به بعمليات، والتقى بقوات الصليبيين في معركة حاسمة عند مرج ابن عامر (1183). ثم هاجم أرناط في عقر داره الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت، ولكنه لم يستطع دخول القلعة المحصنة. وفي العام 1185 وقع مع الملك الفرنجي هدنة سلام تدوم أربع سنوات، لكن أرناط ملّ فترة السلم الطويلة، فاعترض في العام 1186 قافلة للمسلمين كانت آتية من مصر، ونهب الكثير من أمتعتها وسلبها وأسر عدداً من أفرادها، ومنهم أخت صلاح الدين. وقال أرناط لهم: "إذا كنتم تثقون بنبيكم محمّد فليأتِ لينقذكم". ولم يأت محمّد، بل أتى صلاح الدين الذي ثارت ثائرته، فأعلن

(1) ابن الأثير، م.س، ص 105.
– رنسيمان، م.س، ص 697.
- Maalouf, op, cit, p. 216

(2) Maalouf, Idem.

(3) Idem.

الجهاد ضد الصلبيين، وأقسم بأنه سيقتل أرناط بنفسه إذا سنحت له الظروف، وقد سنحت له .

53- معركة حطين وسقوط القدس (1187)

نشبت المعركة الفاصلة عند سهل حطين بالقرب من طبريا في 4 تموز عام 1187. وكان صلاح الدين ملمًّا بمعالم الأرض، فاختار لجيشه الأماكن المشرفة على منابع المياه. ودخل الصليبيون الذين أتوا من عكا، ميدان المعركة وهم يلهثون من الظمأ بعد مسيرة ثماني ساعات في حر محرق للغاية. وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الفرنجة، فأشعلوا النار في الأعشاب البرية، وحملت الريح الدُّخان فزاد من متاعب الصليبيين، فانفصل المشاة عن الفرسان وقتلوا عن آخرهم. وبعد أن ظلّ الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح والدُّخان والظمأ خرّوا منهوكي القوى، فقُتل منهم من قُتل وأُسر الباقون بمن فيهم الملك والعدد الكبير من الأمراء الفرنجة. ولم يُظهر السلطان أي شفقة أو رحمة بفرسان المعبد أو بالاوسبتاريين. وأمر صلاح الدين أن يُؤتى له بالملك غي والدوق أرناط، فلما أقبلا عليه، قدّم الشراب إلى الملك دليلاً على أنه قد عفا عنه. أمّا أرناط فقد خيّره بين الموت أو الإيمان برسالة النَّبي محمَّد، فلما رفض قتله بيده.

وكان مما غنمه المسلمون في هذه المعركة، الصليب الذي كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم في المعركة، يحمله فيها أحد الكهنة أو الأساقفة، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد. بعد هذه المعركة زحف السُّلطان إلى عكا، واستطاع أن يحرّر أربعة آلاف أسير من المسلمين. وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت في قبضة يده بضعة شهور.

---

(1) معارك العرب، ج 17، م.س، ص 169.

- كان أرناط قد وقع سابقاً أسيراً بيد نور الدين، وأمضى في سجنه 16سنة.

وقبل أن تسقط القدس كانت قد سقطت المدن والقلاع المهمة في لبنان وفلسطين في يد صلاح الدين.

وفي العشرين من أيلول عام 1187 فجراً، وصلت قوات صلاح الدين أمام أسوار القدس. وركزت منجنيقاتها الـ12 وعرّاداتها وشرعت في مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية، فدافع الفرنج بكل قوة وفروسية. في 29 أيلول، أحدث المسلمون ثغرة كبيرة في سور القدس. في 20 تشرين الأوّل توجّهت بعثة إلى معسكر صلاح الدين للتفاوض وكان شرط المسلمين استسلام المدينة دون قيدٍ أو شرط. لكن الفرنجة أجابوهم بأنهم سيذبحون جميع الأسرى المسلمين وسيدمِّرون المسجد الأقصى وسيدافعون حتى آخر رجل منهم[1].

لم يطل حصار المدينة. ففي الثاني من تشرين الثّاني استسلمت القدس وفرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب عن كل رجل، وخمس قطع عن كل امرأة، وقطعة واحدة عن كل طفل. أمَّا الفقراء من أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدّوا إليه ثلاثين ألف بيزانت (حوالى 270 ألف دولار أميركي) التي بعث بها هنري الثّاني ملك إنجلترا إلى فرسان المعبد الأسبتاريين، وقبلت المدينة هذه الشروط «بالشكر والنحيب». واعتق العادل شقيق صلاح الدين حوالي ألف من الفقراء. وطلب الكونت باليان (Balian) زعيم المقاومين الفرنج هدية مثل هدية العادل، فأُجيب إلى طلبه وأُعتق ألف آخر. بعدها أعتق صلاح الدين كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن. وما تبقى من الصليبيين وكان عددهم يقارب / 15/ ألف فكانوا أرقاء. وأقسم الملك غي دي

(1) ابن الأثير، م.س، ص 156.
- رنسيمان، م.س، ص 752.
- معارك العرب، ج 17، م.س، ص 196 -197.

لوزينيان والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح مرة أخرى ضد المسلمين. ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن في طرابلس وإنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من هذا القَسَمْ، وأخذوا يحضّرون الخطط للثأر من صلاح الدين.

بعد كل ذلك، أمر صلاح الدين بتطهير قبة الصخرة التي كان الفرنجة قد حولّوها إلى كنيسة، فرُشّت بماء الورد، وأزيل منها الصليب الذهبي الذي كان يعلوها، بين تهليل المسلمين وأنين ونحيب المسيحيين. وفي عام 1188، عاد صلاح الدين مع الجزء الأكبر من جنوده، وانسحب وهو مريض متعب إلى دمشق، في الخمسين من عمره.

* * *

الفصل الثالث

نهاية الحملات الصليبية ونتائجها

(1189– 1291)

1– الحملة الصليبية الثالثة (1189– 1192)

11–توطئة

في غمرة انتصاراته المدوّية، ارتكب صلاح الدين خطأً كبيراً، حينما تراجع أمام المراكز الدفاعية لمدينة صور، فلو أنه زحف عليها بعد استيلائه على عكا في تموز 1187، لامتلكها وقضى على نواة مملكة لاتينية جديدة، عاصمتها عكا. فلما وصل صلاح الدين إلى صور رفض أميرها الكونت كونراد دي مونفرّات فكرة الاستسلام على الإطلاق. وكان السُلطان يومذاك يفتقر إلى المعدات الحربية الكافية التي تسمح له بفرض الحصار المنتظم والمنظَّم على المدينة، فانصرف بجيشه للقيام بعمليات الاستيلاء على الحصون والقلاع الأسهل والأيسر. ولكنه عاد وهاجم

صور فعجز للمرة الثانية عن فتحها بعد أن أحاق بأسطوله الدمار في معركة دارت عند مدخل المرفأ. كما وصلت إلى الفرنج المساعدات من وراء البحار (1).

كان لاحتفاظ المسيحيين بمدن صور وإنطاكية وطرابلس قبسٌ من الأمل. وكانت **الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على البحر المتوسط، متأهبة لنقل المقاتلين الصليبيين إذا أدوّا لها أجورها.**

12- فردريك بربروسّا

عاد وليم الصوري، كبير أساقفة صور، إلى أوروبا، وأخذ يروي في الاجتماعات التي كانت تعقد في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، قصة سقوط القدس. ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فرديريك بربروسّا إلى حدّ دفع الإمبراطور العظيم وهو في سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه فوراً نحو الشرق عام 1189 (2). لقد حيّاه العالم المسيحي بأجمعه وأطلقوا عليه لقب «موسى الثاني» الذي سيشقّ الطريق إلى الأرض الموعودة. والجدير ذكره أن البابا غريغوريوس الثامن كان قد دعا، فور سقوط القدس، عام 1187، بمنشور بابوي بتاريخ 29 تشرين الأوّل 1187، وزّعه من فيرارا، الكاثوليك إلى حملة صليبية جديدة، وأمرهم بالصيام كل أسبوع في أيام الجمعة على امتداد خمس سنوات. والدعوة هذه قام بها ببالغ الهمة الكردينال أنريكودي البانو. أمّا البابا كليمنت III الذي حلّ بعد شهرين محل البابا غريغوريوس الثامن، فقد تلقف الدعوة بكل تأكيد. ولأجل إيقاظ الحماسة الدينية، نذر أخلص خدم الكرسي الرسولي من عداد الكردينالات بالتطواف مشياً على

(1) معارك العرب، ج17، م.س، ص 211.

- رنسيمان، م.س، ص 45 -46.

(2) قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 39.

الأقدام في عموم فرنسا وإنجلترا وألمانيا [1]. وفي هذه البلدان طفقوا يؤلفون قوات برية . **وقرّر ملوكها، هنري الثاني بلانتاجينة، وفيليب الثّاني، الذي لقّب فيما بعد أوغست، والإمبراطور الألماني فريدريك الأوّل بروبروسا، حمل الصليب والانتقال إلى الشرق لاسترداد القدس**[2].

وفي العام 1190، عبر الجيش الألماني مضيق الهلسپنت عند غاليبولي، متّخذاً طريقاً جديداً إلى أرض فلسطين، مكرراً أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها، وقد اقتفت أثره الخيالة التركية فكانت تزعجه وتقتل البعض من مقاتليه وتقطع عنه المؤن. فمات مئات من رجاله جوعاً، ومات الإمبراطور نفسه ميتة غير شريفة إذ غرق في نهر سالف الصغير في كيليكيا عام 1190، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا [3].

13-ريشار الأوّل ملك إنجلترا

كان ريشار الأوّل الملقّب بـ«قلب الأسد» قد توّج منذ زمن قريب، ملكاً على إنجلترا، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فصمّم هذا الملك على أن يجرِّب حظّه في الشرق. وإذ كان يخشى أن يهاجم الفرنسيون، في أثناء غيابه الأملاك الإنجليزية في فرنسا، أصرَّ على أن يصحبه الملك الفرنسي فيليب أوغست الذي وافق، وكان وقتئذ شاباً في الحادية والعشرين من عمره. تلقى الملكان الصليب من وليم، كبير أساقفة صور باحتفال مهيب في فيزلاي، وأبحر جيش ريشار المُؤلف من النورمانديين من مرسيليا، وأبحر جيش فيليب من جنوى، على أن يلتقي الجيشان في جزيرة صقلية عام 1190، فلما التقيا فيها، دبّ النزاع بينهما واستسلما للهو وبقيا في نزاعهما ولهوهما حوالي نصف عام [4].

---

(1) زابوروف، م.س، ص 193، 194.
(2) قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 39.
(3) المرجع نفسه.
(4) زابوروف، م.س، ص 207.
- قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 39-40.

في هذه الأثناء تمكّن ريشار من الاستيلاء على مسّينا التابعة لتانكرد ملك صقلية، ثم ردها إليه لقاء مبالغ كبيرة من الذهب. وعندما توفرت الأموال أبحر بجيشه إلى فلسطين. وتحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص في العام 1191. وقبض حاكمها اليوناني على بحارة السفن وزجّهم في السجن، فوقف ريشار عندها بعض الوقت، وفتح الجزيرة، وأعطاها إلى غي دي لوزينيان، ملك القدس المتشرّد. وبلغ عكا في 7 حزيران عام 1191، بعد عام من مغادرته فيزلاي، وكان فيليب قد سبقه إليها. وفي قبرص غنم ريشار غنائم لا تُحصى، كما احتفل بزواجه من زوجته بيرنجيريا دي نافار (Berengaria)، داخل قلعة ليماسول، حيث تمّ أيضاً تتويجها ملكة إنجلترا[1].

وبالاستيلاء على قبرص، أمَّن ريشار قلب الأسد من حيث الجوهر أهم نجاح لعموم الحملة الصليبية الثالثة. فإن مملكة آل لوزينيان التي نشأت بعد وقت قصير في قبرص، قد تحوّلت في ما بعد إلى حصن بالغ الأهمية لممتلكات الصليبيين في القسم الشرقي من المتوسط. ودامت مئة سنة[2].

بدت «وحدة» الصليبيين الأنجلو - فرنسيين قوية مجددًا، عندما نزلوا في لبنان وانضموا إلى الفرسان الذين يحاصرون عكا. دام الحصار حوالي التسعة أشهر، استعمل خلاله المحاصِرون الأكباش والمنجنيقات وأبراج الحصار على العجلات. ومن أهم أسباب إطالة أمد الحصار نشوب الخلافات بين قادة الجنود الذين حاصروا المدينة، أي بين البارونات المحليين والأشراف القادمين حديثاً من أوروبا. والسبب كان الادعاءات بعرش

(1) جريدة البلد، لبنان، عدد 27 تموز 2007، ص 14.

- زابوروف، م.س، ص 208.

(2) المرجع نفسه.

القدس، من جهة، من قبل غي دي لوزينيان الذي أخلى سبيله صلاح الدين؛ ومن جهة أخرى، من قبل المركيز كونراد مونفرّات، الذي كان قد أصبح فعلاً سيِّد صور. وهذا الخلاف بين الطامعين، جاء يعمّق الخلاف بين الانجليز والفرنسيين أكثر ما كان عليه من عمق. فريشار الذي وصل عكا في 7 حزيران 1191، دعم ادعاء قريبه غي، أمّا فيليب II فدعم المركيز مونفرّات.

وفي 11 تموز بدأ الهجوم العام على عكا، وفي اليوم التالي استسلمت المدينة. ولإنقاذ حامية المدينة دفع صلاح الدين فدية مالية كبيرة، حوالي مئتي قطعة من الذهب (حوالي مليون دولار أميركي اليوم) ووافق على تسليم 1600 أسير من صفوة الصليبيين، وأن يردَّ للفرنجة الصليب الحقيقي الذي استولى عليه في حطين (خشبة الصليب)[1]، وجميع الأسرى الآخرين من النصارى.

وبعد شهر أصيب الملك فيليب بداء الحمّى، فعاد إلى فرنسا تاركاً حوالي عشرة آلاف وخمسماية مقاتل من جيشه في الشرق، وأصبح ريشار القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة.

حاول ريشار قلب الأسد 3 مرات أن يقترب من القدس، وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم إلى انتزاع المدن الساحلية حتى حمص **ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت بالفشل أيضاً.**

وعندما خيَّم الخطر على هاتين المدينتين، أمر صلاح الدين بهدمهما، ولذا لم يبقَ للصليبين منهما غير ركام من الانقاض[2].

لقد أصبح ريشار قلب الأسد في تصّور المسلمين صورة مجسّدة عن النزعة إلى سفك الدماء. وبإسم الملك الإنجليزي كانت الأم المسلمة تحمل

---

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 40.
- زابوروف، م.س، ص 209.

(2) زابوروف، م.س، ص 210.

طفلها الباكي على الصمت: « لا تبكِ، لا تبك، ها هو الملك ريشار آتٍ». وهذا الاسم يذكره الفارس المسلم باللعنات إذا جفل حصانه من شيء، فكان يسأله: «مابك؟ هل رأيت الملك ريشار»؟.

وفي أخر المطاف، حين مُني الصليبيون بخسائر فادحة في الحروب ضد صلاح الدين، وحين بدأ ريشار الأوّل يقلق جدّياً على شؤونه في الوطن، دخل في مفاوضات مع عدوّه صلاح الدين وعقد معه الصلح في الثاني من أيلول عام 1192 . **وبموجب شروط الصلح، احتفظ الأسياد الصليبيون بشريط ساحلي ضيق يمتد من صور إلى يافا، وبقيت القدس خاضعة للأيوبيين.** وقد وافق السُّلطان على السماح للحجاج والتُّجار بزيارة القدس في غضون 3 سنوات. إن امتلاك الشريط الساحلي كان يخدم في المقام الأوّل مصالح التجارة المشرقية.

وفي تشرين الأوّل عام 1192، عاد ريشار قلب الأسد إلى بلاده [1]، بعد أن تلقى من أوروبا أنباء غير مفرحة. ولكن لم يتسنّ له الوصول إلى إنجلترا في وقت قصير. فقد اكتسب لنفسه عدوًّا جديداً، لا في شخص الملك الفرنسي فيليب أوغست الثّاني فحسب، بل أيضاً في شخص الدوق ليوبولد النمساوي، قائد القوات الصليبية الألمانية عند أسوار مدينة عكا. فقد استعجل الدوق في رفع العلم الألماني في المدينة بينما كان الصليبيون يستولون عليها. أمام هذا الواقع أمر ريشار قلب الأسد بنزق وحمية بنزع العلم الألماني ورميه في الوحول. لم ينسَ ليوبولد هذه الإهانة. ففي جوار فينا، عرف ليوبولد أن الملك الإنجليزي موجوداً هناك، مموهاً بلباس التجار، فأسره، ثم سلّمه إلى الإمبراطور الألماني هنري السادس الذي رأى في الفاتح الانجليزي عدوًّا له في تطلعاته إلى منطقة البحر الأبيض

(1) المرجع السابق

المتوسط، فأبقاه في السجن لسنتين[1].

14- نتائج الحملة الصليبية الثالثة

وهكذا نرى أن الحملة الصليبية الثالثة، اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتيها. فبين المشتركين فيها، كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة، كما أنها لم تكن تنطوي على أي عنصر من عناصر العفوية والجماهيرية. لقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وأمراء ثلاث دول إقطاعية ونظّمتها وحققتها السلطة الملكية. **وأثناء الحملة، تكشّف بجلاء ووضوح، سعي الملكيات الإقطاعية الغربية إلى فتح مختلف مناطق البحر المتوسط.** وفي هذه التربة برزت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية - (ألمانيا وبيزنطية ـ إنجلترا وألمانيا - في صقلية، فرنسا وإنجلترا في صقلية وفلسطين، إنجلترا وبيزنطية في قبرص - الخ). وهي التي قرّرت المصير المخزي الذي آلت إليه الحملة الثالثة بمجملها. ومذ ذاك الحين، صارت حدود مملكة القدس، أضيق من ذي قبل، كما نقلت عاصمتها إلى عكا. فكانت ما يُسمّى بمملكة القدس الثانية.

وقبل أن يموت، ترك صلاح الدين لإبنه الطاهر وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة:

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس خير وآمرك بما أمر الله به فإنه

(1) كتب البروفوسور سيدني بنتر من جامعة جون هوبكينس الأميركية:

«وهناك عدد قليل من القادة العسكريين في التاريخ يصعب فهمهم مثلما يصعب فهم ريشار قلب الأسد. فبوصفه مقاتلاً، كان قريباً من الجنوب، وكان يتميّز بشجاعة لا تصدق وكان مفعماً بالجرأة، وبوصفه قائداً كان ذكيًا ومحترساً وحذراً. كان بوسعه أن يجازف بحياته بلا مبالاة تامة، ولكن لم يكن بوسع أي شيء أن يقنعه بتعريض قواته للضربات أكثر مما يكون ضروريًا ضرورة مطلقة.

-Sidnay, Painter, The third crusade. A History of the Crusades, vol.2, The later crusades, 1189-1311. Madison - MilwauKee- London, 1969, p. 73.

سبب نجاتك- واحذّرك من الدماء والدخول فيها والتقلّد بها، فإن الدم لا ينام - وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم - وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر. فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس - ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقي على أحد - واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم»[1]. مات صلاح الدين في عام 1193 ولم يتجاوز عمره الخامسة والخمسين[2].

كانت حملة 1189 -1192 نقطة انطلاق لأجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسّع الغرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وقد حاول هنري السادس (1190 ـ 1198) تحقيق مشاريع فريدريك الأوّل بربروسا غير المحققة. ففي سنة 1194 استولى على صقلية ونكّل بسكانها الذين ثاروا عليه. وضمّ تركة النورمانيين (صقلية) إلى ألمانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هوهنشتاوفن القديم.

إن هنري السادس الذي كان بمقدوره أقل من أبيه أن يقايس بين نواياه التوسعية والإغتصابية وبين الإمكانيات السياسية الفعلية، بدأ يفكر جديًا في تأسيس ملكية عالمية بعد أن وطّد قدميه في صقلية. فأطلق سراح ريشار قلب الأسد من الأسر بعد أن أخذ منه قَسَمْ التابعية وفدية ضخمة جداً. وبذلك أراد هنري السادس أن يضع حداً للادعاءات الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط. ثم اعتزم أن يركع فرنسا بمساعدة ريشار.

إلا أن الإمبراطور الألماني جعل من فتح بلدان الشرق الأدنى، وفي المقام الأوّل بيزنطية، مهمته الأساسية. وبجميع الوسائل استثار الحرب ضد بيزنطية. فقد طلب من الإمبراطور

---

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 15، ص 45.

(2) المرجع نفسه.

البيزنطي إسحق الثّاني أن يتنازل لألمانيا عن نصف الأراضي البيزنطية (أراضي البلقان) وأن يعوّض عن الضرر الذي لحق بالصليبيين الألمان التابعين لفريدريك الأوّل. وفيما بعد، في سنة 1195، حين أُطيح بالإمبراطور اسحق الثّاني بنتيجة انقلاب في القصر، وحل محله على العرش في القسطنطينية أخوه ألكسيوس الثالث، شرع هنري السادس في تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم أن تكون بيزنطية ضحيتها الأولى. وللحصول على حجة رسمية لأجل الإدعاء بالتاج البيزنطي، زوّج هنري السادس في 25 أيار (مايو) 1197 أخاه فيليب، دوق شوابيا، من الأميرة اليونانية إيرينا التي وقعت في يده في باليرمو، ابنة إسحق الثّاني أنجيلوس وأرملة روجيه، العاهل النورماني الأخير في مملكة صقلية (ابن تنكريد دي ليتشه). وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة إلى قوام «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»[1].

وأعدت المدن الإيطالية السفن. وفي ألمانيا تشكلت جموع جديدة؛ وفي فورمس قَبلَ هنري السادس، في آذار 1196، مع القاصد الرسولي، خلال أربع ساعات، في الكاتدرائية، النذور الصليبية من الفرسان.

أثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر في بيزنطية، فوافق المغتصب ألكسيوس الثالث على شراء السلام بأي ثمن كان. وكان مستعداً لدفع مبلغ هائل ذهباً لهنري السادس. ولتحصيل وجمع الأموال اللازمة في البلد الفقير البائس، فرضت ضريبة استثنائية سميت بالضريبة الألمانية (الأمانيكون).

وفي آذار عام 1197 تحركت نحو الشرق أولى الفصائل برئاسة رئيس أساقفة ماينتس، كونراد فيتلسباخ، والمارشال هنري من كالدن، ومستشار الإمبراطورية كونراد من كفيرفورت. ويقدّر مدوّن الأخبار أرنولد من بولك عدد أفرادها بستين ألفاً. وفي 22 أيلول

(1) زابوروف، م.س، ص 212.

نقلهم الأسطول إلى عكا. وتوقّف قسم من الصليبيين في قبرص. واعتبر ملك قبرص آموري دي لوزينيان نفسه تابعاً للإمبراطور الألماني، وسرعان ما انتخب ملكاً على القدس رسميًا بضغط من القوات المسلحة الألمانية **ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية في لبنان وسوريا، فاستولوا على صيدا وبيروت.**

إلاّ أن كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنري السادس في مسّينا في 28 أيلول عام 1197. فقد فتكت بهذا الإمبراطور نوبة دورية من الملاريا؛ أمّا مقاتلوه الذين بقوا في لبنان وسوريا حتى صيف 1198، فعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين)، وأسرعوا في العودة إلى ألمانيا لكي يؤمّنوا مصالحهم في الحرب الإقطاعية التي نشبت هناك.

وبعد حقبة قصيرة، تعالت في الغرب من جديد صيحة باباوية «إلى الشرق!». فإن نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع أبسط توقعات الكرسي الرسولي[1].

2- الحملة الصليبية الرابعة (1199- 1204)

21- توطئة

تمكّن صليبيو الحملة الثالثة من الاستيلاء على عكا، لكنهم لم يتمكنوا من أخذ القدس، وكانت هذه نتيجة ضئيلة جدًا لحملة صليبية اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا. لقد كان غرق الإمبراطور بربروسا، وعودة الملك فيليب أوغست ودسائس الفرسان في الأرض المقدسة التي لم يراعوا فيها واجباً أو ضميراً، أو النزاع الذي قام بين الفرسان الأوسبيتارية وفرسان المعبد، وتجدّد الحرب بين إنجلترا وفرنسا، كل هذا قد حطّم كبرياء أوروبا، وأضعف ثقة العالم المسيحي بها. لكن موت صلاح الدين الأيوبي المبكّر وانقسام دولته بعد وفاته، بعث في قلوب مسيحيي أوروبا آمالاً جديدة، فراحت تُسمع دعوات إلى

(1) المرجع السابق، ص 213.

حملة صليبية رابعة. وفي عام 1192 جلس أنوسنت الثالث (Innocent III) على عرش البابوية (1192 ـ 1216). وأخذ يطالب العالم المسيحي ببذل مجهود جديد، وخاصة الملوك والنبلاء والشعوب، للقيام بحملة جديدة عسكرية لإعادة احتلال القدس. وقد واصل البابا أنوسنت دعوته بجدية تامة، قائلاً إن حملة عسكرية تُوجّه إلى مصر يمكنها الانتصار على الأيوبيين بفضل سيطرة الإيطاليين (بيزا - جنوى- البندقية) على البحر المتوسط، وبعد الانتصار تصبح مصر قاعدة انطلاق الجيوش المسيحية للزحف باتجاه القدس وإعادة احتلالها وترميم المملكة اللاتينية السابقة.

تشغل الحملة الصليبية الرابعة مكاناً خاصاً في تاريخ الحروب الشرقية التي شنّها الفرسان الأوروبيون . فإن بعض المؤرخين يعتبرونها ضرباً من صدفة أو مفارقة أو تناقض تاريخي، ولهذا الاعتبار يوجد أُسس شكلية معيّنة. ذلك أن هذه الحملة التي استهدفت تحرير «الأماكن المقدسة» من السيادة الإسلامية، قد انقلبت في آخر المطاف إلى هزيمة مُنيت بها الإمبراطورية البيزنطية وإلى تشكيل إمبراطورية لاتينية مكانها هي دولة الصليبيين، أي دولة أخرى في عداد دول الصليبيين التي سبق أن تشكّلت في الشرق. لقد أظهرت هذه الحملة الصليبية بصورة جلية تطلعات الإقطاعيين الأوروبيين والكنيسة الكاثوليكية، **فعوضاً عن السعي إلى استرجاع القدس والديار المقدسة من المسلمين، استولى الصليبيون، الذين كانوا قد تحرّكوا ضد مصر الإسلامية، على دولة مسيحية، هي الإمبراطورية البيزنطية ودمّروا عاصمتها كليًّا.** واكتفوا بذلك كأنما لم ترد يوماً في أذهانهم فكرة تحرير الأراضي المقدسة.

22- شمولية السياسة البابوية وإعداد الحملة إلى الشرق

كان البابا أينوسنت III(1198 - 1216) المبادر إلى الحملة الصليبية الرابعة وروحها، وفي عهده بلغت

البابوية قدراً كبيراً من الأهمية، وفي ذلك أسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته، والرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة الذي شغل السدّة البابوية في السابعة والثلاثين من عمره[1]. وهذا البابا كان سياسياً بارزاً في زمانه وذا إرادة راسخة ومثابرة في بلوغ الأهداف المنشودة، والقدرة على استغلال جوانب الضعف في أخصامه بعد دراستها جيّداً، وإخضاع نواياهم لمقاصده، والتنبؤ بالأحداث وتوجيهها. هذه المواهب وحدها كانت تكفي لاستمالة أصوات الكرادلة إلى جانبه.

في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر انتشرت المساعي إلى تأسيس إمبراطورية عالمية انتشاراً واسعاً في الغرب. ونشأت في تربة الترسيم الإقليمي الذي مارسته الدول الإقطاعية الفتيه في ذلك الزمن. وهذه الميول الشمولية لازمت قبل كل شيء سياسة آل هوهنشتاوفن، حكام الإمبراطورية الألمانية، الذين سعوا منذ زمن إلى بسط زعامتهم في أوروبا الغربية والوسطى والجنوبية. ففي النصف الثّاني من القرن الثّاني عشر، أضحت الإمبراطورية الألمانية تسمّى الإمبراطورية «المقدسة» باعتبار أن أباطرتها يتلقون السلطة من الله[2].

وقد اكتسبت الميول الشمولية طابعها الأوسع في سياسة البابوية الرومانية، ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية كانت مركزاً عالمياً حقاً وفعلاً للنظام الإقطاعي.

كانت الحملة الصليبية الرابعة منذ البدء، جزءاً مكوّناً في غاية الأهمية من أجزاء البرنامج الشمولي للحبر الأعظم. وكانت الفكرة الأولى والأخيرة عند البابا أنوسنت III. وفي كل مدة عهده الباباوي بذل جهوداً كبيرة لأجل بعث روح الحملات الصليبية القديم.

(1) زابوروف، م.س، ص 217.

(2) المرجع نفسه، ص 219.

لم يضن البابا بالفصاحة والبلاغة لأجل تنظيم الحملة الصليبية. فقد أرسل في آب وأيلول عام 1198 إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا والمجر وغيرها من البلدان، رسائل بليغة نادى فيها جميع «المؤمنين» إلى النهوض للدفاع عن الأرض المقدسة، وحدد لأجل التجمعات مدة ستة أشهر (حتى آذار 1199)، وكان على الذين فكروا في السفر بحراً وعلى الذين اعتزموا السفر براً أن يجتمعوا حتى الصيف في مرافئ إيطاليا الجنوبية وصقلية[1]. وفي الحال، اتخذت تدابير متنوعة دينية عملية، ومالية ودبلوماسية لأجل إعداد الحملة الصليبية.

أمر البابا [illegible] جميع الأحبار بكل صرامة بأن يطالبوا بمشاركة الكاثوليك في الحملة دون أي تردد وأي شرط. ولأجل إشعال الحماسة الدينية أمر رجال الدين من جميع المراتب بعدم التردّد عن إصدار الحرم بحق المهملين والمقصّرين حيال القضية المقدسة وحتى عن إصدار الحرم (Interdit) على أراضيهم. ثم **أعلن البابا غفران الخطايا على أوسع نطاق لجميع المشتركين في الحملة الصليبية** بموجب السلطة التي منحها إياها الرب، ولا تكمن [illegible] [illegible] والحلّ [illegible] استعمل في [illegible] البابوية للإشارة إلى حق رجال الدين في غفران الخطايا أو برفع الحرم. كذلك أعلن أن الخلاص الأبدي سيكون [illegible] «سواء للذين لم يشتركوا شخصياً بل قدموا المقاتلين اللازمين على حسابهم ووفقاً لأموالهم أم للذين اشتركوا شخصياً في الحملة وإن يكن على حساب الغير». **وأُعفيَ الصليبيون من جميع الضرائب**، و«شخصيتهم وملكهم يوجدان، منذ أخذ الصليب، تحت حماية بطرس [illegible] وحمايتنا».

كان الجانب المالي من المشروع

---

(1) زابوروف، م.س، ص 220.
– قصة الحضارة، م.س، ص 47.

يقلق البابا أينوسنت الثالث بصورة جدّية جداً. ولأجل تأمين المبالغ النقدية الضرورية، فرض في أواخر سنة 1199 ضريبة صليبية خاصة على رجال الدين مقدارها جزء من أربعين من دخل الكنائس والأديرة السنوي. والضريبة ذاتها كان ينبغي أن يسدّدها بعض الجمعيات الرهبانية غير المميّزة. وتحاشياً لاستياء الرهبان والكهنة الفقراء، أحاطهم البابا علماً أن هذه الضريبة خارقة للعادة، وأنه لا ينوي اللجوء إليها مستقبلاً كضريبة دائمة على أملاك المؤسسات الكنسية[1].

وتبيّن أن مخاوف البابا بصدد «سخاء» و«كرم» رجال الدين لم تكن باطلة. فإن الأساقفة الفرنسيين، مثلاً، لم يدفعوا الضريبة الصليبية، رغم أن بعضهم وعد حتى بان يقدِّم للكرسي الرسولي أكثر مما طلب. وبعد فترة قليلة، في سنة 1201، لام البابا أينوسنت الثالث رجال الكنيسة الفرنسيين على أنهم تعهدوا طوعاً واختياراً بأن يقدّموا جزءاً من ثلاثين من مداخيلهم، ولكنهم لم يدفعوا حتى جزءاً من أربعين، أي هذا الجزء المستحق بموجب أمر البابا. كذلك تذمّر رجال الدين في بلدان أخرى. وهنا وهناك أثار جباة البابا الريبة بهم: ألن تعلّق المبالغ التي يجمعونها بأصابع كبار رجال الدين في روما؟ إنّ مدوّن الاخبار الإنجليزي، الراهب ماتيو، الملقب لسبب غير مفهوم بالباريسي، يقول إن ضريبة البابا لا ترضي الرب. فهكذا كان، أغلب الظن، الرأي العام في الأوساط الكنسية. كذلك قاومت بعض الجمعيات الرهبانية دفع النقود الصليبية؛ فإن الرهبان السيسترسيين البخلاء دافعوا بعناد بالغ عن حريتهم وإعفائهم من الضرائب، معتبرين الضريبة الجديدة بمثابة اضطهاد أو يكاد لجمعيتهم الرهبانية.

وسعياً لضرب مثل حي على السخاء التقي لرجال الدين البخلاء، تعهّد البابا أينوسنت الثالث بأن يدفع

(1) زابوروف، م.س، ص 221.

عشر مداخيل البابوية الرومانية لحاجات الحملة.

كذلك بذل هذا البابا نشاطاً عاصفاً في الميدان الدبلوماسي. في ذلك الوقت كانت تدور رحى الحرب بين فيليب الثّاني أوغست وريشار قلب الأسد، الأمر الذي كان يمنع الفرسان والنبلاء الفرنسيين والإنجليز من الاشتراك في المشروع الذي حضّره البابا. ولأجل مصالحة الجانبين المتعاديين، أرسلت روما إلى فرنسا قاصداً رسولياً، هو الكاردينال الشماس من كنيسة القديسة مريم، بطرس من كابوا. وقد تسنّى لهذا الكاردينال أن يعقد هدنة بين فرنسا وانجلترا في كانون الثّاني عام 1199. (بعد ذلك، بأربعة أشهر لقي ريشار قلب الأسد مصرعه أثناء حصار قصر أحد أتباعه في نورمنديا) وفي الوقت نفسه أُرسل قاصد رسولي آخر، هو الكاردينال الشماس سوفريدو إلى البندقية، التي كان بمقدورها وحدها أن تؤمّن نقل الصليبيين المقبلين بحراً، إذ إن جنوى وبيزا كانتا آنذاك في حالة حرب تجارية، علماً بأن البابا حاول، ولكن عبثاً والحق يقال، أن يصلح بين الخصمين السريعي الغضب (وإلى هاتين المدينتين أرسل كذلك كاردينالين).

ولم تغب ألمانيا أيضاً عن فكر البابا أينوسنت الثالث. فمنذ سنة 1198 كانت كتلتان إقطاعيتان تتعاديان هناك بضراوة - آل شتاوفن وآل فلف. وقد قدمت كل كتلة مرشحها إلى التاج الملكي، ولذا انتخب ملكان في آن واحد، هما فيليب من شوابيا، ابن فريدريك بربروسا، وأوثون من براونشفيغ (فلف) ابن أخت ريشار قلب الأسد. وفي الحال تدخّل البابا في هذا الخصام الإقطاعي، وبواسطة رسله وفي الرسائل إلى الملكين الألمانيين والأمراء الألمان، نصح الحزبين المتعاديين بوضع حد للشقاق والخلاف. إن تدخل أينوسنت الثالث في الشؤون الألمانية أملته بصورة رئيسية اعتبارات تتعلق بالصراع الذي كان قد استمرّ أكثر من مائة سنة بين البابوية والإمبراطورية الألمانية.

حاول الكرسي الرّسولي قبل كل شيء أن يستغلّ النزاع الإقطاعي العاصف في ألمانيا لما فيه صالح روما السياسي، وبخاصة لأجل توسيع أراضي الدولة البابوية في إيطاليا (على حساب ممتلكات آل شتاوفن)، ولأجل توطيد مكانة البابوية المعنوية والسياسية في الأراضي الألمانية. وفي الوقت نفسه أخذ الكرسي الرسولي بالحسبان حاجات الحملة الصليبية المقبلة. إلا أن رسالة البابا أينوسنت الثالث المقام لم تسفر، من وجهة النظر هذه، عن أية نتيجة إيجابية. فالكتلتان الإقطاعيتان، اللتان تدعم كل منهما أحد الملكين، ظلتا تتعاديان كما من قبل، ولم يفعل البابا، بتدخله، داعماً تارة أحد الطرفين وطوراً الطرف الآخر، غير صب الزيت على النار. واضطرت ألمانيا إلى دفع ثمن السياسة البابوية سنوات طويلة من الحروب الداخلية التي حالت بالتالي دون اشتراك عدد كبير من الإقطاعيين الألمان اشتراكاً مباشراً في الحملة الصليبية.

وإعداداً للحملة الصليبية، توجّه البابا أينوسنت الثالث كذلك إلى الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث. فقد كان على القسطنطينية، برأي البابا، أن تحرّك جيوشها لأجل تحرير القدس. هذا المطلب تلقّاه الإمبراطور البيزنطي في رسالة باباوية لام فيها أينوسنت الثالث الإمبراطور على أنه كان يمتنع لغاية اليوم عن مساعدة الأرض المقدسة. هذه الملامات لم تكن سوى ورقة دبلوماسية. فإن البابا كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطية. وكان يهمّه اشتراك بيزنطية في الحملة الصليبية (مع أن البابا كان يريد بالتأكيد أن يستغل مواردها المادية والعسكرية لأجل فرض سيادة الكرسي الرسولي في الشرق) أقل مما كان يهمه في المقام الأول أمر آخر هو إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية). وطرح البابا في رسالته إلى الإمبراطور البيزنطي، أوّل ما طرح، مسألة اتحاد الكنيسة. وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تستتر وراءها نوايا القضاء على استقلالية الكنيسة

الأورثوذكسية، واستملاك ثرواتها ومداخيلها، وإخضاع بطريرك القسطنطينية، رئيس الكنيسة الأورثوذكسية، ومن بعده الإمبراطور نفسه، للسدّة الرسولية.

وهكذا ظهرت الحملة الصليبية واتحاد الكنيسة، في الحال، وثيقي الارتباط في سياسة البابا. وقد حدث ذلك لأن **البابا رأى في الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لإحراز نجاح مزدوج في آن واحد: جعل القدس والقسطنطينية معاً تابعتين لروما** .ومن المؤكد أن أينوسنت الثالث لم يكن يرى آنذاك في الحملة الصليبية أكثر من وسيلة لتخويف الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتمة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الغربيين .**وببساطة نقول إن البابا هوّل على الإمبراطور البيزنطي لإجباره على إجراء تنازلات تتعلق بالوحدة الكنسية** .أمّا في الواقع، فإن البابا لم يقتصر في رسالته إلى ألكسيوس الثالث على النصائح «الأبوية» وعلى الاستشهادات بالإنجيل، بل ألمح بما يكفي من الوضوح إلى أن بعض قوى الغرب ستعمل، أغلب الظن، ضد بيزنطية إذا رفضت القسطنطينية مطلب الكرسي الرسولي. وهذا التهديد الغامض كان مجلبباً بجلباب دبلوماسي.

ولكن القسطنطينية رفضت رفضاً قاطعاً مطامع البابا أينوسنت الثالث، وفي شباط 1199 وجه ألكسيوس الثالث اتهامات مقابلة إلى البابوية بسبب سياستها حيال بيزنطية. وكل هذا لم يؤدي سوى إلى إثارة غضب البابا. وبقدر ما كانت تتطور الأحداث، كان يحاول أن ينفّذ تهديداته لبيزنطية: ففي عامي 1198 - 1199 كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لا تزال، غير واضحة، ولكن البابا أعرب بكل وضوح عن جوهرها.

وفي سنة 1198، بدأت تنعقد تلك العقدة التي أصبحت في سنة 1204 أنشوطة مشدودة حول القسطنطينية.

فالتناحر بين البابوية وبيزنطية

والذي كانت سياسة البابوات الشمولية أساسه، كان السبب الأوّل (من حيث زمن ظهوره)، وإن لم يكن السبب الرئيسي، لتغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة. وسرعان ما انضمت إليه أسباب أخرى أكثر أهمية.

23- الاستعداد للحملة ودوافع الفرسان الصليبيين

لئن كان رجال الكنيسة ترددوا في مساندة مبادرة حبرهم الأعظم الصليبية بالأموال، فإنهم لم يضنّوا بالمواعظ التي طوّرت بواعث الرسائل البابوية في صالح الحملة الصليبية . **ففي كل مكان بدأ الأحبار الكاثوليك يلقون الخطابات النارية، مدافعين عن الحرب المقدسة**، ومحاولين أن يجتذبوا إليها بشتى الوسائل أكبر عدد ممكن من المقاتلين. ولم يكن الواعظون يضنّون على المشتركين المقبلين فيها بالوعود بالنعم السماوية والأرضية.

وهذه المرة قام بدور بطرس الناسك، المدعو فولك كاهن إحدى الرعايا، من مدينة نويّي الفرنسية الواقعة عن نهر المارن. وباستغلال جهل الشعب، استطاع أن يكسب لنفسه شهرة التحلّي بموهبة اجتراح العجائب والقدرة على شفاء المرضى والمقعدين. وفي غضون بضع سنوات، بدءاً من سنة 1198 حتى سنة وفاته ضمنا (توفي في أيار 1202) طاف في دائرة باريس قرية قرية واعظاً بالحملة الصليبية ومرفقاً مواعظه (التي كان يشهّر فيها بالمرابين والعواهر والخطأة) بشتى العجائب الممسرحة. كان فولك، كما كتب عنه مدوّن أخبار معاصر لا يخلو من بُعد النظر، «يعرف جيداً من يشفي وفي أي وقت يمكنه فعل ذلك».

إن مواعظ فولك واقترابه من المتعصبين، الذين كانوا يؤدون مثله مهمتهم بتكليف مباشر من البابا أينوسنت الثالث، قد أحرزت في البدء بعض النجاح بين الفلاحين. ويؤكّد مدون الأخبار الإنجليزي رادولف كوغيسهيل أن فولك اجتذب إلى درب الرب زهاء 200 ألف شخص - وهذا

عدد من المؤكد أنه مبالغ فيه بإفراط وثمرة خيال مدوّن الأخبار. أمَّا في الواقع فإن نجاح الكاهن الفرنسي هذا كان أكثر تواضعاً بكثير، ولذلك زال بسرعة. فللحظة أغرت مواعظ المجنَّدين الباباويين النارية الشعب البسيط. ولكن نوبة الورع الصليبي أنقضت فيما بعد بسرعة. وظلت أزمان بطرس الناسك طي الماضي...

لقي نداء البابا صدى، ولكن ليس في الحال، وبصورة محدودة جدًّا، وعلى الأغلب في الوسط الإقطاعي، وقبل كل شيء في فرنسا . **ففي فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار النبلاء ومعهم أتباعهم الفرسان** أمَّا الملوك، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة للدعوة البابابوية. فملك فرنسا فيليب الثّاني أوغست، الذي مرّ منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة، كان يتمسك برأي مفاده أن الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة. ولم يأبه فيليب الثّاني أوغست لنداء القاصد الرسولي بيار من كابوا الذي وصل إلى فرنسا. واستأنف الحرب، بعد مصرع ريشار قلب الأسد، ضد أعدائه، آل بلانتاجينه، إذ انقضّ على الممتلكات الفرنسية لخلف ريشار، الملك الإنجليزي الجديد جان بلا أرض (Jean sans Terre) (1199- 1216). أمَّا ريشار قلب الأسد المتأدب - وقد كان لا يزال حيًّا عندما بدأ فولك من نويي مواعظه- فقد سخر على المكشوف من خطابات هذا الكاهن النارية. فبطل الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب مدوِّن الأخبار الانكليزي جيرالد من كمبريدج، قد قال لفولك، رداً على دعواته، ما يلي تقريباً: «أنت تنصحني بجحد أبنائي الثلاثة - التكبُّر والبُخل والفجور. لا بأس. فإني أتنازل عنها لمن هم أجدر مني، تكبّري للهيكليين، بخلي للسيسترسيين وفجوري للكهنة».

مضى شهر آذار من العام 1199 - الموعد الذي عيّنه البابا أينوسنت الثالث لإنجاز الاستعدادات للحملة - والقوات الصليبية لم تكن بعد جاهزة للزحف نحو الشرق.

ولم تبدأ الاستعدادات المباشرة

للحملة إلا في أواخر سنة 1199. ففي تشرين الثاني أقيمت جولة بين الفرسان في قصر أكري بمقاطعة شامبانيا (على نهر الاين، منطقة الأردين). وهنا تعهّد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك في الحملة الصليبية. وقد انتشرت في الأدب أسطورة تزعم أن فولك من نويّي خطب في الجولة، وسحر الفرسان بأقواله. على كل حال، **استحوذت الحمّى الصليبية على الفرسان والأسياد منذ جولة تشرين الثّاني. ومن بين الذين تحمسّوا للحملة عدد كبير الإقطاعيين البارزين، وأغلبهم من الشبان (لم يكن أحد منهم تقريباً يتجاوز الثلاثين من العمر).**

يذكر المؤرّخان فيللاردوان وروبر دي كلاري، بالتفصيل الأسماء المدوية لأولئك البارونات الذين استجابوا في أواخر سنة 1199 وأوائل سنة 1200 لنداء البابا، وبينهم كان تيبو الثالث كونت دي شامبانيا، وابن أخ الملك الفرنسي وابن شقيق الملك الإنجليزي، وابن عمه لويس كونت دي بلوا وشارتر، والكونت سيمون دي مونفور (فيما بعد، قائد الحملة الصليبية ضد الألبيجيين)، والكونت رينو دي مونميراي وغيرهم. وفي شباط (فبراير) 1200، نذر النذر الصليبي بودوان التاسع، كونت الفلاندر واينو، وأخوه هنري؛ كذلك تعهّد بالاشتراك في الحملة هوغ دي سان بول، وإيتيان دي برش، وغيرهما. وقد كتب روبر دي كلاري: «هناك كان عدد من الآخرين كبير... إلى حد أنه ليس بوسعنا أن نذكر لكم جميع الفرسان، والمشاة الشجعان». ومثل فيللاردوان، يكتفي روبر دي كلاري بتعداد أشهر البارونات وأتباعهم.

هؤلاء الفرسان جميعهم تقريباً لم تدفعهم البتة الدوافع الدينية إلى الشرق، مع أنه لا مجال للشك في توفرها. فقد كانوا من أهل زمانهم، وكانوا على اقتناع بأن:

«من فتحوا أقطاراً غريبة

بدوافع قضايا مقدسة،

ينتظرهم فيما وراء القبر غفران الخطايا»

في هذه الأبيات أعرب في ما بعد عن هذا الإيمان أحد المشتركين في الحملة الصليبية الرابعة، هو التروبادور (الشاعر الزجلي) هاوسل فايديت (وللمناسبة نقول إنه كان من كبار هواة الطعام اللذيذ والمقامرة بالكعاب، ولم يكن ينتمي، أغلب الظن، إلى عداد الصليبيين ذوي الإيمان). وفضلاً عن الذرائع الدينية، **لعبت التقاليد العائلية دوراً معيناً في حمل عدد من كبار البارونات على الاشتراك بالحملة الصليبية**. فإن الاشتراك في الحملة هذه كان يعتبر من زمان بعيد علامة حسن السلوك والسمعة في عائلات النبلاء من الفرسان، فقد كان يتعيَّن على كل فارس شاب أن يزور حتماً الأرض المقدسة كصليبي. وهذا التقليد ترسّخ في سلالة كونتات دي بلوا (اشترك أسطفان دي بلوا في الحملة الصليبية الأولى). وكونتات دي شامبانيا (الكونت هنري، الأخ الأكبر للكونت تيبو الثالث، كان من عداد المشتركين في الحملة الصليبية الثالثة ومات حاكماً للقدس سنة 1197). وغوتيه دي بريان كان ابن وحفيد صليبيين، وكان جوفروا دي برش وميلون دي بريبان، وتيبيري من الألزاس أبناء وأحفاد نبلاء كانوا قد اشتركوا في حملات صليبية سابقة.

ومع ذلك كانت **أهم أسباب نزوة الأسياد الفرنسيين الصليبية سياسية الطابع** فإن هؤلاء البارونات جميعهم تقريباً وقفوا إلى جانب إنجلترا في الحرب التي دارت رحاها قبل ذاك بقليل بين فرنسا وإنجلترا، فقاتلوا في معسكر أعداء فيليب الثّاني أوغست وكانوا من أنصار عائلة أنجو. والآن أخذ هؤلاء البارونات يتخوفون من انتقام الملك الفرنسي، وقد خافوا قبل كل شيء، بالطبع، على أراضيهم في فرنسا. ذلك أن فيليب الثّاني نقل عداوته لريشار قلب الأسد، بعد مصرعه، إلى جان بلا أرض....وقد قرّر كونت دي بلوا، وكونت الفلاندر، وكذلك البارونات القريبون منهما أن يصبحوا صليبيين لكي يحرموا سيدهم الملك من إمكانية الاستيلاء على ممتلكاتهم (بوصفهم

حلفاء الملك الإنجليزي)، **ذلك أن أموال الصليبي كانت توضع في حماية الكنيسة** .وقد جاء بوضوح في أخبار أينو، مثلاً «أن بودوان، كونت الفلاندر وأينو، حزن على وفاة الملك ريشار، **ولخوفه من مكائد الملك الفرنسي، اشترك بالحملة الصليبية مع كثيرين من البارونات لكي يتهرب من سلطته ويتجنب الحرب ضده»**.

وليست الهموم والمقاصد الورعة، بل الهموم والمقاصد الأرضية المحضة - من باب المكانة والنفوذ أو من باب النفعية المباشرة- هي التي دفعت، كما من قبل، الإقطاعيين إلى المغامرات فيما وراء البحار. كانوا يحرصون على رفاههم وحفظ ممتلكاتهم، وصيانتها من تطاولات عرش الكابيتيين، وإكثارها، طبعاً بفضل الفتوحات في الشرق. **كذلك كانت دوافع الفتح هي التي دفعت أساساً أكثر الفرسان- الأتباع وإتباع الأتباع، الذين انضمّوا تدريجياً إلى الأعيان** . فالفارس روبيردي كلاري، الذي انضمّ إلى فصيلة سيده بيار داميان والذي أصبح في ما بعد مؤرخ الحملة، أعلن بكل صراحة أن الصليبيين ذهبوا إلى بيزنطية «لكي يستولوا على الأراضي»[1].

24- انطلاق الحملة بحراً باتجاه الشرق (1202)

بعد مساومات طويلة، وافقت البندقية على أن تعدّ ما يلزم لنقل / 4500/ من الفرسان والجياد و/ 9000/ من أتباعهم، وعشرين ألفاً من المشاة، وما يكفي هذه القوة من المؤن لمدة تسعة أشهر. كل هذا لقاء / 85/ ألف مارك من الفضة (ثمانية ملايين وخمسماية ألف دولار أميركي). **ووافقت أيضاً أن تمدّهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختصّ جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية**[2].

(1) زابوروف، م.س، ص 227، 228.

(2) لم يكن بنية البنادقة مهاجمة مصر التي كانوا يتاجرون معها ويكسبون الملايين في كل عام. =

تجمعت الجيوش في مدينة البندقية في صيف 1202، فجاء معظم المقاتلين والنبلاء والأمراء من فرنسا. وطُلب إلى كل مقاتل أن يأتي ومعه مبلغاً من المال حتى يتجمع للحملة مبلغ 85 ألف مارك فضي تؤدى للبندقية تنفيذاً للشرط المتفق عليها. لكن المبلغ المتوفر وصل إلى نصف المبلغ الأساسي المطلوب، فتقدّم المدعو هنريكو دوندولو (Enrico Dondolo) دوق البندقية، عارضاً دفع ما تبقى شرط أن يساعد الصليبيون جمهورية البندقية على فتح مدينة زادار (Zadar)، التي هي أهم ثغور البحر الأدرياتيكي بعد البندقية نفسها. وكانت زادار من أملاك بلاد المجر ومنفذها الوحيد إلى البحر، وكانت ثروتها وقوتها تتنامى بشكل مضطرد. وقد هاجم الأسطولان المتحدان زادار واستوليا عليها بعد خمسة أيام، وقسّم الفاتحون الغنائم في ما بينهم. ثم خطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثّاني من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية. هذا مع العلم أن تجار البندقية كانوا يبتزون أموالاً طائلة من المسيحيين والمسلمين على السواء، وقد اعتبرت البابوية والدول المسيحية الأوروبية أنها تجارة مع العدو وهذا عمل مشين.

وفي الشرق الصليبي كانوا يقولون إن الأرباح التجارية بالنسبة للبندقية أهم بكثير من انتصار قضية الفرنجة الصليبيين. وقد ورد في حوليات ذلك الزمان أن «انحراف الحملة الصليبية عن هدفها الأوّل حدث لأن السُّلطان الأيوبي دفع أموالاً طائلة للبندقية كي يوجّه اسطولها الصليبيين في اتجاه آخر». وهذا ما اضطر البابا أنوسنت III إلى التنديد بالبندقيين تنديداً حاداً بسبب غشهم في التعاطي الرسمي

= كانوا يصدّرون إليها الخشب والحديد والسلاح ويأتون بالعبيد. لذلك عقدوا حلفاً سرّيًا مع سلطان مصر يضمنون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو. ويقال إنهم حصلوا على رشوة كبيرة لقاء تحويل الحملة الصليبية عن الديار المقدسة. (قصة الحضارة، م.س.، ج15، ص 47).

وبسبب لا مبدأيتهم، وكان قد سبق له أن منعهم في عام 1198 من بيع الأسلحة من المسلمين. كما أعلن بشكل عام، دون أن يسمّي البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح إليها، بجلاء:

«إننا نحرم من الكنيسة ونلعن أولئك المسيحيين الدجالين وعديمي التقوى، الذين يحملون إلى المسلمين، ضد السيد المسيح نفسه وضد الشعب المسيحي، السلاح والحديد وخشب السفن وكذلك السفن، أو يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القراصنة، ويديرون آلاتهم الحربية، أو يقدّمون لهم نصيحة ما أو مساعدة ما، لما فيه ضرر الأرض المقدسة» [1].

وأمر البابا أن يعمّم مضمون هذا الحرم، من قبل الكهنة، في جميع المدن والموانئ البحرية، في أيام الآحاد والأعياد. أمّا البندقية فتجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية. فالاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار وأصحاب السفن. لذلك، **تقدّم البابا، عندما صادق على المعاهدة، بشرط مسبق كثير الدلالة، مفاده أن الصليبيين الذاهبين على متن سفن البندقية «لن يرفعوا السِّلاح ضد المسيحيين»** [2]. لأن البنادقة، برأي البابا، ينقلون، لقاء المال، أي إنسان إلى أي مكان كان.

إن الهجوم على المسيحيين (بيزنطية) الذي كان البابا أينوسنتIII يفهم جيداً جداً إمكانية حصوله، كان من شأنه أن يسيء إلى فكرة الحملة الصليبية، وإذا كان البابا قد بارك معاهدة النقل، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد ربط مباركته بشرط «الامتناع عن مهاجمة المسيحيين». فالبابا قد صادق بالفعل على القيام بمشروع الفتح، الذي كان لا بدّ منه لمصالح البندقية الاقتصادية والسياسية، في المقام

(1) زابوروف، م.س، ص 233.

(2) مماثل، ص 236.

الأوّل مع تحديد موضوعه. ولقد كانت بيزنطية، الهدف الأكثر احتمالاً، ناهيك عن أن البابا نفسه كان يسعى هو أيضاً إلى إخضاعها. فخط البابوية الدبلوماسي في الحملة الصليبية ومشروع أهل البندقية وتجارها الإغتصابي، وقد تقاربا في ما بينهما وإن لم يكن تطابقاً كلياً.

ومهما يكن من أمر، **فإن ربيع 1201 قد أعدّ التربة لأجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر إلى حملة عسكرية ضد بيزنطية** . فعلاً لقد كانت فرنسا وألمانيا ضد بيزنطية. ذاك أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن قد تعلّمت شيئاً من الحملات الصليبية، فهي لم تقدم للفرنجة المحاربين أي معونة تذكر، ولكنها حصلت منهم على كسب كبير، فقد استردّت الجزء الأكبر من آسيا الصغرى، وكانت تنظر بعين الرّضى والاطمئنان إلى ما حلّ من الضعف بالغرب وبالأيوبيين في كفاحهما للاستيلاء على فلسطين. إلى جانب كل هذا، لم يستنكف الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس (Issac Angles) عن التحالف مع المسلمين الأيوبيين. وفي عام 1195، خلعه أخوه ألكسيوس III وسجنه وسمل له عينيه، وفرّ ابن اسحق واسمه أيضاً ألكسيوس، إلى ألمانيا ثمّ جاء إلى البندقية في عام 1202 واستغاث بمجلس شيوخها وبالصليبيين، أن ينقذوا والده ويعيدوه إلى عرشه، ووعدهم لقاء ذلك أن تساعدهم بيزنطية في حربهم ضد الأيوبيين المسلمين. وعقد دوق البندقية، دندولو والنبلاء الفرنسيون مع الأمير البيزنطي اتفاقاً عظيم الفائدة: فقد أقنعوه أن يتعهّد بدفع مائتي ألف مارك فضي إلى الصليبيين، وأن يجهّز جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل للخدمة في فلسطين، وأن يخضع الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية للبابا في روما[1] .

---

(1) قصة الحضارة، ج 15، م.س، ص 49.

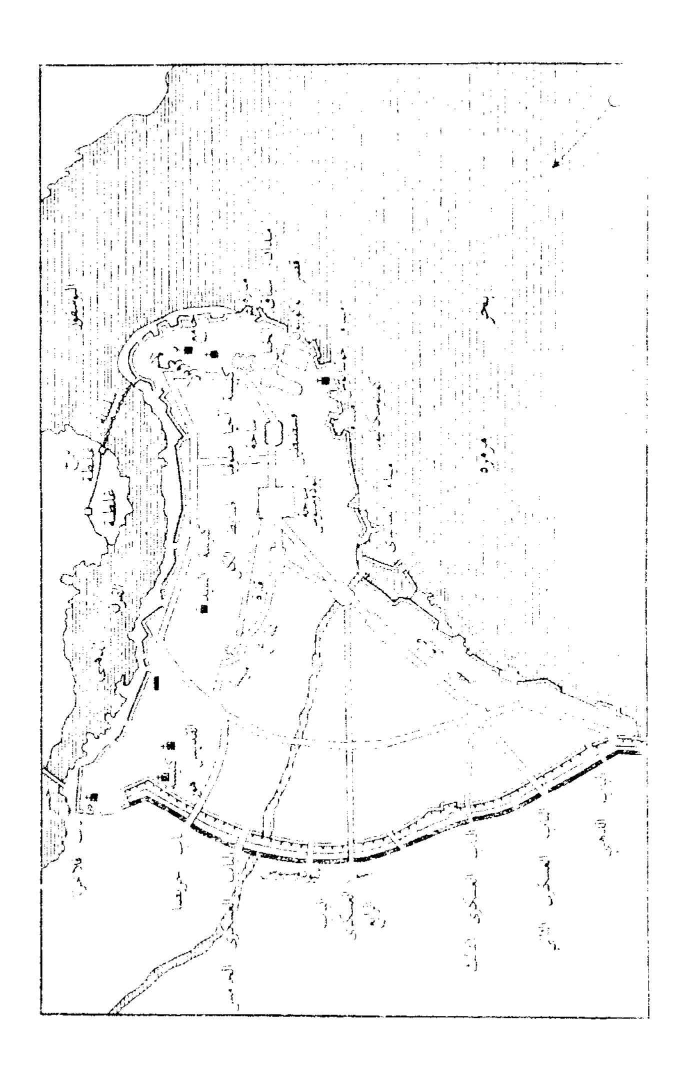
وفي 8 تشرين الأوّل 1202، أبحر أسطول الصليبيين من البندقية، وكان يتألف من / 70/ قادساً وحوالي / 150/ نفاً ويوسيًا (سفن شحن). وكان يحمل المؤونة والخيول وأدوات دك الحصون والأسوار، والمنجنيقات والعرادات لأجل إطلاق «الأسهم» الثقيلة والحجارة والعوارض الخشبية الملفوفة بالحديد، والبراميل المليئة بالسائل الوقودي. كانت القوادس عبارة عن سفن ضيقة وطويلة تتميّز بالسرعة والقدرة على المناورة في المعارك. وكانت تحمل فرقاً مسلحة من حملة الأربالت[1] وحملة المقاليع. وكان النف عبارة عن سفينة كبيرة، رحبة، ذات متون ملوية صوب القارينة، ومزوّدة بعدد من الصواري ومن الأشرعة العريضة. وفي مقدمة النف ومؤخرتها كانت تنتصب أبراج خشبية. أمّا اليوسي فقد كانت سفينة شراعية للنقل، وكانت معدة لنقل الخيول في عنبرها العميق.

وفي 11 تشرين الثّاني، ابتدأ أسطول الصليبيين (زهاء 200سفينة) بالقتال، بعدما دخل مرفأ زادار المغلق بسلسلة حديديّة. وفي 24 تشرين الثّاني، وبعد هجوم دام خمسة أيام، احتلّ الفرسان زادار، التي كانت محصّنة بأسوار وأبراج عالية، محطّمين المقاومة العنيدة التي أبدتها الحامية المجرية وسكان المدينة. وخرّب الفرسان زادار بما فيها كنائسها. وحصلت مجزرة كبيرة في داخلها ودمّرت المباني، وغنمت غنائم وفيرة. ووقعت تحت حكم البندقية.

وفي نيسان 1203، مضى الصليبيون من زادار إلى جزيرة كورفو. وفي 24 أيار، غادر الأسطول الصليبي كورفو. وبعد أن تجاوز البيلوبونيز، اتجه من جزيرة أندروس إلى القسطنطينية.

---

(1) قوس فولاذي ذو مقبض يشدّه نبّاض.



خارطة القسطنطينية سنة 1203

في 23 حزيران ظهر أسطول البندقية الذي يحمل المحاربين في مكلاء القسطنطينية. مضى الأسطول بمحاذاة الساحل الأسيوي من البوسفور وتوقف على بعد بضعة كيلومترات من العاصمة البيزنطية، قرب سكوتاري. وحاول الإمبراطور ألكسيوس III بواسطة رسوله اللومبردي نيكولوروسي أن يستبعد بالوسائل الدبلوماسية الخطر الوشيك واعداً الصليبيين بالإسهام في استرجاع الأرض المقدسة إذا تركوا بيزنطية وشأنها. ولكن لا الوعود ولا التهديدات أسفرت عن النتيجة المنشودة. ووجّه البارونات، بواسطة الرسول الإمبراطوري، إنذارهم: «يجب على المغتصب أن يتنازل عن العرش وإلا فلا يلومنّ إلّا نفسه».

وفي 5 تموز 1203، اخترقت قوادس البندقية السلسلة الحديدية التي تقفل مدخل القرن الذهبي (الخليج) وأبادت السفن البيزنطية العفنة ودخلت هذا المركز الحصين والمهم من دفاع المدينة. ونزلت فصائل الصليبيين في ضاحية «غلطة» وهاجمت تحصينات العاصمة، التي كانت تدافع عنها قوات جمعت بسرعة وتسرّع. وفي اليوم التالي احتلّ الصليبيون برج «غلطة» وتراجع المدافعون إلى ما وراء أسوار المدينة. **دارت المعارك بين الصليبيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين لمدة عشرة أيام تقريباً. وفي 17 تموز 1203 استسلمت القسطنطينية التي يبلغ عدد سكانها حوالى المئة آلف نسمة ووضعت قدرها في أيدي الجنود والمرتزقة الصليبيين الذين نهبوا ودمّروا معالمها بحجة اسقاط الإمبراطور المغتصب.** وفي اليوم التالي، في 18 تموز 1203، أخلي سبيل إسحق الثّاني أنجيلوس الأعمى من السجن، ونودي به إمبراطوراً ونقل إلى قصر فلاخرنا[1].

كانت الحملة الصليبية الرابعة

(1) للمزيد من المعلومات عن الإمبراطورية اللاتينية، يجب مراجعة الجزء «عشرة قرون من الحضارة المسيحية - الإمبراطورية البيزنطية» في هذه المجموعة.

الحملة الأخيرة التي عادت على الغرب بنتائج مهمة متميزة، ولكنها لا تمت بأية صلة إلى الأهداف المعلنة رسميًا لمشروع من هذا النوع. وبالفعل **أسفرت مغامرة الفرسان الصليبيين في سنوات 1202 -1204 عن تأسيس دولة أطلق عليها اسم «الإمبراطورية اللاتينية» واتخذت القسطنطينية عاصمة لها.** في البدء انحصرت حدود دولة الصليبيين الجديدة في العاصمة نفسها، ثم تسنّى للفرنجة عن طريق الفتوحات، توطيد دعائمهم في كثير من أراضي شبه جزيرة البلقان وفي جوارها. وقد استولوا على تراقيا، ومقدونيا وفيساليا وإلاتيك وبيوتيا والبيلوبونيز وجزر بحر إيجه، وحكموها إقطاعياً بعدما قسّموها إلى دوقيات وكونتيات[1].

بعد السيطرة على القسطنطينية، صمتت النداءات إلى تحرير القدس صمتاً تاماً لحقبة من الزمن. فالوضع الذي نشأ في الشرق اللاتيني، بعد انتقال القدس إلى المسلمين، أجبر البارونات والأمراء الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بممتلكاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين على الامتناع عن القيام بمحاولات للبحث عن المساعدة من الغرب الأوروبي.

وساد في الشرق اللاتيني جو من الهدوء المتقلقل. فإن كلاً من الطرفين المتحاربين كان مستغرقاً كلياً في بلبلاته واضطراباته السياسية بالذات، الأمر الذي أكره الصليبيين والمسلمين سواء بسواء على التوقيع في أول تموز 1198 على معاهدة للصلح مدتها خمس سنوات وثمانية أشهر تعترف بالوضع القائم الذي استقر منذ رحيل الفصائل الألمانية عام 1198 على أثر وفاة هنري السادس. وفي سنة 1204، عندما حلّ الجوع في مصر من جراء الجفاف، مضى ملك القدس أموري دي لوزينيان (1198 - 1205) إلى حدّ القيام بمحاولة لاحتلال مصر. ففي أيار 1204، تحرّك أسطول من /20/ سفينة إلى دمياط،

(1) قصة الحضارة، م.س، جزء 15، ص 49.

ولكن المصريين والصليبيين على السواء أبدوا القدر نفسه من العجز وفضّلوا بناء علاقاتهم في المستقبل على أساس التنازلات المتبادلة والاتفاق الحبي. وبموجب المعاهدة الجدية التي وقّعها السُلطان العادل في أيلول 1204، تنازل الأيوبيون للصليبيين عن يافا والرملة واللّد ونصف صيدا. وفي السنوات التي تلت، تحاشى الصليبيون والمسلمون النزاعات المسلحة. ولم يستأنف البابا دعواته الصليبية إلاّ في سنة 1213[1].

3 ـ الحملات الصليبية الأخيرة (1211 - 1291)

31– الأطفال يؤلفون حملتين صليبيتين (آذار وأيار 1212)

أ– حملة الشاب الألماني نيقولاس (25 آذار 1212)

منذ فشل الحملة الصليبية الثالثة، كانت فكرة الحرب المقدسة لأجل تحرير القدس معلقة في هواء البلدان الأوروبية الغربية، ولكنها تلقت نبضة جديدة بعد استيلاء الصليبيين على القسطنطينية. وهذا الاستيلاء كان في نظر الفلاحين الفقراء الذين وصلت إليهم أنباء هذا الحدث، وإن يكن بصورة متأخرة، برهاناً جديداً على فشل الحملات الصليبية ضد المسلمين، لأن هذه الحملات كان يوجّهها أصحاب المصالح المادية والمعنوية. إن أماني الفلاحين والمواطنين العاديين المؤمنين، والتي كانت تتجلى في ما مضى بالمآثر الدينية التكفيرية، همدت نارها كثيراً في غضون القرن 12. فالجماهير الشعبية لم تشترك تقريباً، لا في الحملة الصليبية الثانية ولا في الحملة الثالثة. ومع ذلك ظلّت التربة قائمة لأجل انبعاث هذه الأمزجة بصورة عرضية.

إن إخفاق الحملتين الثالثة والرابعة والشكوك التي دارت

---

(1) زابوروف، م.س، ص 281، 282، 283.
– قصة الحضارة، م.س، ج 15، 54، 55.

حولهما، جعلت الناس في أوروبا يعتقدون أن لا سبيل إلى استرداد القدس إلا بالطهر والانعتاق من الذنوب. ولهذا قام في عام 1212 شاب ألماني، يدعى نقولاس (Nicholas)، وأعلن أن «الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلّفة من الأطفال البريئين من كل خطيئة». عارضه رجال الدين وغير رجال الدين، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً في عصر تسوده موجات الحماس العاطفية، خاصة وأن رجال الدين قد أثّروا بمواعظهم الدينية على عقول الناس العاديين البسطاء والسُّذج[1].

حاول الآباء والأمهات منع أطفالهم من الاستجابة لهذه الدعوة ولكن دون جدوى، فالآلاف من «الصبيان والبنات، الذين لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة، تسلّلوا من منازلهم العائلية والتحقوا بنقولاس. وتقول حوليات ذلك الزّمان أن عددهم وصل إلى ثلاثين ألف طفل. خرج القسم الأكبر من هذا الحشد من مدينة كولونيا في ألمانيا، وساروا مع مجرى نهر الرين (Rhin)، وفوق جبال الألب. وأهلك الجوع عدداً كبيراً منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين. واختلط اللصوص بالزاحفين وسرقوا ثيابهم وطعامهم، ووصل من نجا منهم إلى جنوى، ولم يجدوا سفناً تقلهم إلى الديار المقدسة. أمام هذا الواقع، طلب منهم البابا أينوسنت III العودة إلى ديارهم، فعاد قسم منهم عبر جبال الألب وقسم بقي في جنوى.

ب- حملة الشاب الفرنسي ستيڤن ايتيان (13 أيار 1212)[2]

كما حدث في ألمانيا، حدث في فرنسا، فقد ادّعى راعٍ يُدعى «ستيڤن ايتيان» من قرية كلوا، في الثانية عشرة

---

(1) المرجع السابق.

(2) قصة الحضارة، ج 15، م.س، ص 54.

- زابوروف، م.س، 287، 288.

من عمره أمام الملك، أن السيد المسيح ظهر له وهو يرعى مواشيه، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى الدِّيار المقدسة. أمره الملك أن يعود إلى مواشيه ويتابع حياته العادية. ولكن حوالي عشرين ألفاً من الصبيان اجتمعوا رغم هذا الإنذار وساروا وراء ستيڤن، واجتازوا فرنسا حتى وصلوا مرسيليا على المتوسط. وكان ايتيان قد وعدهم بأن البحر «سينشقّ عند هذه المدينة كي يتمكنوا من الوصول إلى الديار المقدسة راجلين. ولم ينشق البحر، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا عليهم أن ينقلانهم إلى حيث يقصدون دون مقابل. فازدحم الأطفال في سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر. وتحطّمت سفينتان قرب سردينيا وغرق كل من كانوا على متنهما، أمَّا السفن الخمسة الباقية فقد تابعت سيرها إلى تونس أو مصر حيث باع أصحاب السفن هؤلاء الأطفال في أسواق الرقيق. وعندما علم الملك فريدريك الثّاني بهذه الحادثة المخيفة، أمر بشنق أصحاب السفن التي أقلّت أطفال فرنسا إلى هذه الفاجعة.

وتقول الحوليات إنه لم يتمكّن سوى عدد قليل من المشتركين في الحملتين ممَّن وصلوا إلى إيطاليا وغيرها أن يعود إلى دياره في فرنسا أو في ألمانيا. ولربما لقي نيقولاس هو أيضاً مصرعه في برانديزي، وانتحر والده. أمَّا أيتيان الصغير فقد نجا، وحتى أنه اشترك بعد خمس سنوات في الحملة الصليبية الخامسة ضد مصر[1].

32- الحملة الصليبية الخامسة (1217)

في العام 1213، استأنف البابا إينوسنت III الدعوة إلى حملة صليبية جديدة إلى الشرق. وأرسل عدداً من المفوضين البابويين إلى كافة البلدان الكاثوليكية: (أرسل إلى فرنسا، القاصد الرسولي روبيرديكورسون،

(1) زابوروف، م.س. ص 287.

وجاك ديفتري، أسقف عكا، الذي طاف في مدن إيطاليا الشمالية، وأوليفر السكولاستي الذي وعظ في مقاطعات ألمانيا الشمالية). كما أرسل رهبان عاديين وكهنة وعّاظ، يستثيرون عاطفة الناس. وأمر البابا بتجنيد الشباب في كل مكان [1].

دامت حملة الوعظ والتجنيد زهاء سنتين. **ثم انعقد في روما في شهر تشرين الثّاني 1215، المجمع اللاتراني الرابع، واتخذ سلسلة من القرارات المبدئية التي تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية عامة.**

في عام 1216، وعد الإمبراطور الألماني فريدريك الثّاني والملك المجري أندره الثّاني وجون بلا أرض (Jean Sans terre) الإنجليزي، بالمشاركة في هذه الحملة. توفي البابا أينوسنت III في هذه السنة وخلفه على السدَّة الرسولية البابا هونوريوس III الذي واصل سياسة سلفه وسعى إلى تحقيق نواياه فعيّن مع الحملة قاصداً رسولياً إسبانياً هو الكردينال بيلاجيوش من البانو.

وفي العام 1217 غادرت الحملة الصليبية الخامسة أراضي ألمانيا والنمسا والمجر بقيادة أندرو ملك المجر، وتمكّنت من الوصول إلى عكا في السادس عشر من أيلول حيث عقد أندرو المجري وليوبولد النمساوي والدوق أوتومى ميرانو، اجتماعاً بحضور فصائل ملك قبرص الصليبي غي دي لوزينيان وفصائل الفرسان التابعة للنبلاء اللاتين في سوريا ولبنان وفلسطين، وملك القدس يوحنا دي بريان، وأمير إنطاكية بوهيموند الرابع والفرسان الأوسبيتاريين بقيادة الأستاذ الأكبر غارن دي مونتيغيو، والفرسان الهيكليين بقيادة الأستاذ الأكبر غليوم من شارتر وغيرهم. وقد بلغ عديد الحملة حوالي 20 ألف فارس و200 ألف من المشاة، وهذا أيضاً من

(1) زابوروف، مرجع سابق، ص 291.
-قصة الحضارة، م.س.، ج 15، ص 55.

باب المبالغة الشديدة[1].

أمضى الصليبيون المجريون والألمان سنة كاملة في عكا بلا جدوى. وقد حاولوا أن يشنوا غارات على دمشق ونابلس وبيسان. كما حاولوا الاستيلاء على قلعة الطور مع أبراجها السبعة والسبعين وقهر حاميتها المؤلفة من ألفي رجل. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل لأن الرؤساء كانوا على خلاف دائم بالنسبة للأهداف العسكرية.

وفي السنة 1218، عاد ملك المجر مع قواته إلى بلاده دون تحقيق هدفه. بعد ذلك، قرّر قادة الفرسان إرسال الجيوش إلى مصر. وقد أفلحت هذه في الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقي. وسقطت المدينة في أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملاً، وعرض عليهم الملك الكامل، سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من القدس، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين، ويعيد خشبة الصليب المقدس[2]. وطلب الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربية. رفض الملك الكامل وهذا الشرط، وبدأت الحرب من جديد، ولكنها لم تجر كما كان يشتهي الصليبيون، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرونه من إمداد لوجستي وبشري، فعقدوا هدنة لثماني سنوات **بعدما ردّ الأيوبيون خشبة الصليب الحقيقية** وغادر الفرنجة دمياط والأرض المصرية إلى فلسطين.

33- الحملة الصليبية السادسة (1228)

عزا الصليبيون فشل الحملة الخامسة إلى الإمبراطور فريدريك الثّاني الذي وعد أن ينضم إلى الجيوش التي كانت تحاصر دمياط، ولكن المشاكل

(1) زابوروف، م.س، ص 296.

(2) قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 55

- زابوروف، م.س، ص 297.

السياسية القائمة وقتئذٍ في إيطاليا التابعة له، إضافة إلى بعده عن مكان الحدث، لم تمكّنه من أن يبرّ بقسمة وبوعوده. وفي العام 1228، زحف فريدريك على رأس الحملة الصليبية السادسة، ولما وصل إلى عكا لم يلق أية معونة من صليبيي الشرق، فقد اعرض هؤلاء عن رجل محروم من البابا. أمام هذا الواقع أرسل فريدريك بعثة إلى السُلطان الكامل الموجود في نابلس يقود جيشه ضد أميري دمشق، (الأوّل ضد أخيه، ثم ض ابن أخيه). وفي شباط 1229 عقد فريدريك الثّاني، بعد مناقشات طويلة، في يافا، معاهدة صلح مع السُلطان الكامل لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر تنازل فيها السُلطان عن القدس (ما عدا المنطقة المحيطة بقبة الصخرة والمسجد الأقصى)، وبيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطرق المؤدية إلى القدس، وقسم من دائرة صيدا، وطوران (بلدة تبنين وقلعتها)، على أن يعزِّز بعض الحصون والقلاع ويعيد تنظيمها[1]. وتمّ التوقيع بينهما على اتفاقيات تجارية مفيدة. وتعهد الإمبراطور بدوره بمساعدة الكامل ضد أعدائه، أياً كانوا وأخلي سبيل كافة الأسرى من الجهتين. وضمن الامبراطور للسلطان بأن القلاع السورية الباقية في أيدي الصليبيين، مثل قلعة كراك دي شيفاليه (قلعة حصن الأكراد حاليًا) وشاتل بلان، وقلعة طرطوس، لن تتلقى أية مساعدة من أي مكان[2].

وفي 18 آذار 1229، رفض الأساقفة تتويج الإمبراطور المحروم من الكنيسة، فدخل فريدريك الثّاني إلى القدس، ووضع على رأسه بيديه، التاج الملكي في كنيسة قبر السيد المسيح.

اغتاظ البابا من سياسة

---

(1) قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 56. وزابوروف، م.س، ص 303.

(2) قصة الحضارة، م.س، ج15، ص 57.

- زابوروف، م.س، ص 304.

الإمبراطور، فدفع بفصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك II في إيطاليا الجنوبية. فأسرع هذا إلى مغادرة سواحل فلسطين واندفع إلى إيطاليا حيث نشب صراع مسلَّح ضد الحبر الأعظم منيت خلاله قوات البابا بالهزيمة. وفي عام 1230 الغى البابا، بموجب صلح سان جرمانو، الحرم على فريدريك II، وصادق في السنة التالية على معاهداته مع المسلمين، وأمر جميع الأساقفة والأحبار وبخاصة الفرسان على مختلف مؤسساتهم بمراعاة الصلح مع السُّلطان الكامل.

34- الحملة الصليبية السابعة (1248)

لما رجع فريدريك الثّاني إلى بلاده، استولى النبلاء الصليبيون المقيمون في فلسطين على القدس بكاملها، وعقدوا حلفاً بين القوة المسيحية في آسيا وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر (1244). استنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم، فهب هؤلاء لنجدته وتمكنوا من الاستيلاء مجدداً على القدس فنهبوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها. وبعد شهرين هزم الظاهر بيبرس المملوكي الصليبيين في غزة، وسقطت مدينة القدس مرة أخرى في أيدي المسلمين (ت1 1244).

وبينما كان البابا أنوسنت الرابع، يدعو إلى حملة صليبية جديدة، نظّم لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة. واقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه، ولما حلّ عيد الميلاد ارتدى بعض المسيحيين الذين ظلّوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة، أثواباً صليبية نُقشت عليها شارة الصليب. وبذل الملك جهده للتوفيق بين البابا وفريدريك II الذي كان يعارضها، وذلك بغية توحيد كلمة أوروبا ضد المسلمين في الشرق. لكن البابا رفض وساطته. وفي المقابل، بعث البابا أحد الرهبان المدعو جيوفني دي بيانو كاربين (Giovanni de Piano Carpini) إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه المساعدة

العسكرية في صراعه ضد الأتراك. لكن الخان رفض هذا الطلب كونه كان يرغب في مهاجمة أوروبا المسيحية[1].

وما أن حلّ عام 1248 حتى سار الملك لويس التاسع (سان لويس) على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم سيد جوانڤيل الذي روى أعمال الملك أثناء الحملة. وصلت الحملة إلى دمياط واستولت عليها بسرعة، لكن فيضان النيل أجبر الفرنسيين على البقاء دون حركة عسكرية حوالي نصف سنة. ولما واصل الجيش زحفه، كان الجوع والمرض والفرار قد أنهكت قوته وأنقصت عدده، وأضعفه اختلال نظامه، فمني بهزيمة ساحقة عند قرية المنصورة، رغم استبساله في الدفاع عن نفسه. وبنتيجة المعركة تمكن المماليك من أسر عشرة آلاف من الصليبيين من بينهم الملك لويس نفسه، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (1250). وعالجه من مرضه طبيب عربي، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى في الأسر شهراً واحداً بشرط أن يسلّم دمياط ويفتدي نفسه بخمسمائة ألف من العملة الفرنسية (أربعة ملايين دولار أميركي). سار الملك مع فلول جيشه إلى عكا، وأقام فيها حوالي أربع سنوات يدعو فيها أوروبا في غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضمّ إليه في حملة جديدة إلى الشرق. وكانت السنون التي قضاها في الشرق قد هدّأت ما كان بين المسيحيين فيه من شقاق، فلمّا غادره عاد هذا الشقاق إلى سيرته الأولى، فقامت بين أهل البندقية وجنوى، بين عامي 1256 و1260، حرب داخلية في ثغور بلاد الشام، اشترك فيها كافة الأحزاب المتنافرة كل في موقعه. وأُنهكت قوى المسيحيين في فلسطين. واغتنم بيبرس أحد سلاطين المماليك في مصر، هذه الفرصة فزحف بجيشه

(1) قصة الحضارة، م.س، ص 57.
- زابوروف، م.س، ص 305.

على الساحل واستولى على المدن المسيحية مدينة في أثر أخرى: قيصرية (1265)، صفد (1266)، يافا (1267) وإنطاكية (1268). وقتل من وقع في الأسر من الصليبيين أو استرقّ، وقاست إنطاكية من النهب والحرق فوق طاقتها.

وثارت حمية لويس التاسع من جديد في شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى في العام 1267. وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته واعتبروا أنها لا تعطي نتيجة، وأبوا أن ينضمّوا إليه. وحتى جوانفيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك في الحملة الصليبية التالية. ونزل الملك - الحصيف في حكمه، والذي صنّف قديساً في ما بعد، بقواته القليلة في بلاد تونس؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحي، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب. ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض أفريقيا حتى «أصيب بنزلة معوية شديدة» كما حصل معه أثناء أسره في مصر، ومات وهو يردد كلمة «بيت المقدس» وذلك في العام 1270. وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدوارد، ولي عهد إنجلترا في عكا، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزي.

وحلّت بالصليبيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين في بلاد الشام، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية. وطلب السُلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء؛ ولم يُجب إلى طلبه، فزحف إلى عكا أقوى المعاقل الأمامية الصليبية في فلسطين، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً. فلما سقطت في يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (1291). وسرعان ما سقطت بعدئذ في أيدي المسلمين مدن صور، وصيدا، وحيفا، وبيروت وجبيل وطرابلس وزالت المملكة اللاتينية من الوجود. وبقي شبح المملكة اللاتينية ماثلاً إلى

حين في ألقاب بعض الزعماء، وظلّ بعض المتحمّسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية «ليواصلوا السجال العظيم». ولكن أوروبا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها.

4- نتائج الحروب الصليبية

41- الإخفاق العسكري

عالجنا في الفصول السابقة قصة الحروب الصليبية من نواحيها السياسية والعسكرية، وسنحاول الآن أن ننظر في النتائج المهمة التي أسفرت عنها. وأولى هذه النتائج إخفاق الصليبيين التام في تحقيق ما جاءوا، في الأصل، من أجله. ألا وهو انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وجعلها تحت سيطرة البابا أو غيره من الملوك والأمراء الأوروبيين. ولكن هذه النتيجة السلبية ليست كل ما في الأمر. فهناك **نتائج إيجابية كثيرة كان لها تأثير عظيم في تطور الحضارة العالمية وفي تقوية العلاقات والروابط البشرية بين الشرق والغرب. وتتلخص تلك النتائج فيما يلي:**

42- اختلاط الشعوب وتعارفها

من الخطأ أن نتصور أن المعارك كانت مستمرة والعداء كان مستحكماً بين الصليبيين والمسلمين طوال المدة الزمنية التي تعرف بعهد الحروب الصليبية. فقد كانت الأعمال الحربية متقطعة تتخللها فترات من الهدوء والسلام. وكثيراً ما كان الفريقان يعقدان الهدن والاتفاقات لآجال طويلة تبلغ عدة سنوات. وفي أثناء ذلك كان المحاربون والمدنيون من الجانبين يجتمعون في الأسواق والمتاجر والحقول فيتعاملون ويتحادثون في مختلف الشؤون، فعرف كل منهم الآخر معرفة صحيحة وزالت تلك المخاوف والأوهام التي سبق لها أن سيطرت على عقولهم.

ونشأت صداقات بين بعض الصليبيين وبعض المسلمين من مختلف الطبقات، وصاروا يتبادلون الهدايا والزيارات. وقد أُعجب الغربيون بكرم المسلمين وشجاعتهم وشهامتهم بعد أن كانوا يتصورونهم عكس ذلك تماماً.

وزاد في تفهم الصليبيين لأخلاق أهل الشرق وأحوالهم أن بعض الشرقيين، وخصوصاً الأرمن واليونان المقيمين في هذه البلاد، انضمّوا إليهم وانخرطوا في جيشهم وعايشوهم وحاربوا إلى جانبهم. وبلغ هذا الاختلاط تمامه عندما بدأ التزاوج بين الفريقين. فقد اقترن كثير من الغربيين بنساء شرقيات، كما اقترنت بعض النساء الغربيات برجال شرقيين. ويروى في هذا الصدد أن ريكاردوس قلب الأسد ملك انجلترا عرض أن يزوِّج أخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، على أن يمنح العروسان عرش المملكة اللاتينية في القدس فيضع ذلك الزواج حداً للنزاع بين الفرنج والمسلمين.

ونحن نجد شيئاً كثيراً من أخبار هذا الاختلاط بين الشرقيين والغربيين في كتب المؤلفين العرب والأجانب الذين عاشوا في ذلك العهد واشتركوا في الحرب نفسها. ومن أنفس هذه المصادر في اللغة العربية «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ أمير شيزر (قرب حماة) وأحد القادة الذين حاربوا الصليبيين في زمن الناصر صلاح الدين.

ومن ما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الصليبيين الذين أعجبتهم أحوال هذه البلاد لم يجلوا عنها مع الآخرين بل أقاموا فيها إقامة دائمة وامتزجوا بسكانها.

43- اقتباس الحضارة العربية

وكان من نتائج هذا الاحتكاك الذي تحدّثنا عنه أن تأثر كل فريق بأخلاق الفريق الآخر وعاداته وتفكيره، وخصوصاً ما كان منها غير مألوف عنده. فأخذ من كل ذلك ما وجد نفسه بحاجة إليه.

أ- الحياة الاجتماعية

فمن الناحية الاجتماعية أعجب الغربيون بالبيوت العربية الرحبة ذات الصحون الواسعة التي تتوسطها برك الماء الجاري. ورأوا أن اللباس الفضفاض أجلب للراحة والعافية في هذا الإقليم الحار بالنسبة إلى أوروبا، فارتدى بعضهم اللباس العربي وأطلقوا

لحاهم فصرت تخالهم إذ تراهم أعراباً أقحاحاً.

وأحبّ الصليبيون الأطعمة العربية وصاروا يطبخونها في بيوتهم وأولعوا باستعمال البهارات والتوابل كأهل هذه البلاد أو أكثر. وكذلك عُنوا باقتناء وسائل الترف التي كانوا محرومين منها في أوروبا كالألبسة الحريرية الفاخرة، والمرايا الزجاجية، والروائح العطرية وغيرها.

أمّا العرب فلم يقبلوا على تقليد الفرنج والأخذ عنهم لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أرقى منهم بكثير، وكانوا يأنفون أن ينزلوا إلى مستواهم. ولكن ذلك لم يمنع الشرقيين من أن يعجبوا ببعض الأشياء عند الفرنج، فاقتبسوها عنهم كأجراس الكنائس ولبس الخواتم وحمل العصي.

ب- الفنون الحربية

لعلّ أوّل ما أدهش الصليبيين في جيوش السلاجقة عند التقائهم بها، موسيقاها العسكرية القوية المثيرة. وما لبث الصليبيون أن اقتبسوها عنهم وصاروا يستخدمونها لإثارة حمية جيوشهم في الحروب.

وفي المعارك التي خاضها الصليبيون في هذه البلاد اكتسبوا خبرة واسعة في أساليب الحصار وفي استعمال الأسلحة الخاصة بهدم الأسوار، واقتحام المدن المحصنة كالمنجنيق والقذائف التي تحتوي على مواد ملتهبة وغيرها. وتقدم فن بناء الحصون عندهم تقدماً عظيماً. يدلنا على ذلك القلاع الباقية من ذلك العهد كحصن الأكراد وقلعة طرابلس. ويُظن أن الصليبيين عرفوا البارود لأول مرة في هذه البلاد. فإذا صح ذلك فإنه يكون أعظم سلاح اقتبسوه عن الشرق في هذا العهد.

ج- الصناعة

ووجد الصليبيون صناعة بلادنا رائجة متقدمة بالنسبة إلى صناعة بلادهم. وكانت أهم المراكز الصناعية مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس. وكانت المناسج، والمصابغ، ومعامل الزجاج المزركش، والخزف الملون،

والصابون، ومعاصر الخمور في بلدتي جبيل وأنفة تعمل باستمرار لتستطيع أن تلبي طلبات المستهلكين والتجار الذين كانوا يرسلون قسماً من هذه المنتجات إلى أوروبا.

وكان الصليبيون يعجبون بهذه الصناعات خصوصاً تلك التي كانت جديدة عليهم. ولعلّ أكثر ما أعجبوا به صناعات السكر الذي كانوا يجهلونه تماماً في أوروبا، ويستعملون العسل بدلاً منه لتحلية طعامهم ومشروباتهم.

وقد تعلّم الصليبيون عدة صناعات ونقلوها إلى بلادهم. فقد أسّس بعضهم مصنعاً لإنتاج السجاد الشرقي في باريس، وأنشأ آخرون في أماكن أوروبية أخرى معامل لنسج الدمقس ولصنع الزجاج الملون الثمين الذي اشتهرت به بعض المدن الأوروبية في ما بعد.

د- الزراعة

وكان أثر الحروب الصليبية في حقل الزراعة الأوروبية بارزاً ملموسا. فقد تعرف الصليبيون في الشرق إلى أشجار ونباتات لم يكونوا قد رأوها من قبل، فلما ذاقوا ثمارها واستطابوا طعمها حملوا بذورها إلى بلادهم فظهرت، منذ ذلك الحين، في أودية أوروبا الدافئة وسهولها الجنوبية المشمسة، أشجار الليمون والخروب والمشمش (وكانوا يسمونه خوخ دمشق). كما ظهر في أسواقها لأول مرة السكر والسمسم والبطيخ وبصل عسقلان وغيرها. ومن يتأمل الأسماء الغربية لبعض هذه الأشياء يجد أنها تدل على أصلها العربي.

44- ازدهار التجارة

جلبت الحروب الصليبية الويل والخراب لعدد كبير من الناس في الشرق والغرب. لكن أكثر من أفاد منها فائدة مادية عظيمة هم التجار ولاسيّما تجّار البندقية وبيزا وجنوى ومرسيليا. فقد ظلّت سفنهم طيلة قرنين كاملين تنقل الصليبيين وعتادهم من أوروبا إلى مرافئ عكا وصور وطرابلس وغيرها لقاء أجور عالية. ثم إنها كانت تحمل، في طريق العودة، مختلف أنواع

البضائع الشرقية التي أصبح الغربيون يقبلون على شرائها أيما إقبال.

وأسَّس التجار في الشرق مستعمرات شبيهة نوعاً ما بمستعمرات الفينيقيين في العهود الغابرة. وكانت بعض تلك المستعمرات عبارة عن أحياء خاصة بالأجانب في بعض المدن التجارية الكبرى. فكان لأهالي جنوى، مثلاً، حي في طرابلس، وللبنادقة وتجار مرسيليا حيّان في مدينة القدس.

ولم يكن النزاع الصليبي يمنع التجارة أو يعرقل سيرها في غير أوقات القتال. فقد كان العرب يسمحون بمرور قوافل التجارة الفرنجية في أراضيهم لقاء بعض الرسوم. وكان الفرنج يعاملونهم بالمثل. وكانت البضائع تأتي من أسواق بغداد وحلب ودمشق إلى المرافئ الصليبية، وخصوصاً إلى عكا وطرابلس، لتشحن منها إلى أوروبا.

وازدهرت التجارة ازدهاراً عظيماً ونشطت حركة المراكب في البحر الأبيض المتوسط نشاطاً لم يعرف له مثيل إلا في أيام ازدهار الإمبراطورية الرومانية.

45- تقدم فن الملاحة

وسارت الملاحة في طريق التقدم مع التجارة جنباً إلى جنب فأدخلت على صناعة بناء السفن بعض التحسينات المهمة. فزاد حجم المراكب وصارت تستطيع أن تحمل عدداً أكبر من الركاب وأن تنقل كمية أوفر من البضائع. وبالنظر لظروف الحرب الملحة وحاجة الصليبيين إلى الإمدادات المتواصلة صار السفر في البحر الأبيض المتوسط مستمراً صيفاً وشتاءً بعد أن كان يجري خلال أشهر الصيف فقط. وأخذ الملاحون الأوروبيون عن العرب الإبرة المغناطيسية فساعدتهم كثيراً في أسفارهم ودفعت بفن الملاحة خطوة واسعة إلى الأمام.

46- انتعاش الحركة الفكرية في أوروبا

ونتج عن الحروب الصليبية، كذلك، نشاط فكري ملموس في بلاد العرب، فقد اقتبس الفرنج من العرب كثيراً من المعارف في الطب

والرياضيات وغيرها من العلوم. ولم ينتشر تأسيس دور المعالجة والبيمارستانات (المستشفيات) في أوروبا إلا بعد أن تعرّف الصليبيون على مثيلاتها في بلدان الشرق.

ونشطت حركة التأليف التاريخي والأدبي، فوضعت كتب عديدة عن الشرق وعن الحوادث التي جرت خلال الحروب الصليبية، كما أن أدباء الغرب وشعراءه تأثروا بالأدب العربي وخصوصاً بقصص ألف ليلة وليلة وبأوزان الشعر. ويظهر هذا التأثر في بعض الآداب الأوروبية بشكل واضح.

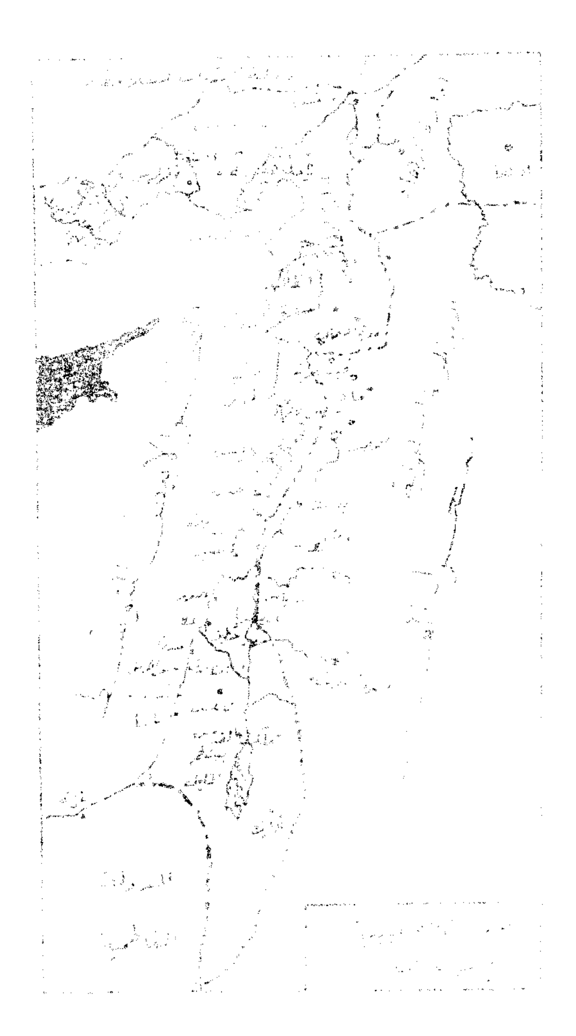
وكان للحروب الصليبية فضل كبير على تقدم علم الجغرافيا وخصوصاً ما يتعلق منه بالشرق. فقد تعرّف الصليبيون تعرفاً حقيقياً كاملاً إلى هذه البلاد الممتدة من القسطنطينية حتى القاهرة. ثمّ ذهب مرسلوهم الدينيون وموفدوهم السياسيون إلى بلاد الترك والتتار وغيرهم فاكتشفوا أواسط آسيا وجمعوا عنها معلومات جغرافية قيمة ساعدت المكتشفين كثيراً في القرون التي تلت.

47- نتائج أخرى

ومن نتائج الحملات الصليبية في أوروبا نفسها تضعضع النظام الإقطاعي وانهياره. فقد باع كثير من سادة الإقطاعيين أملاكهم وذهبوا مع رجالهم إلى الشرق فلم يعودوا منه. وساعد ضعف النظام الإقطاعي الملوك على زيادة قوتهم وتعزيز سلطانهم. فكان ذلك بدء التطور الطويل المدى الذي انتهى إلى قيام الدول الأوروبية الحديثة بشكلها الحالي.

وكان البابا في أوّل العهد الصليبي قويًا مسيطراً على زمام السياسة الأوروبية. وكان الملك صنيعة البابا في معظم الأحيان. ولكن إخفاق الحركة الصليبية في الشرق، وما نتج عنه من تطورات سياسية واجتماعية هامة في الغرب قلب هذا الوضع رأساً على عقب. فصار الملوك أقوياء وابتدأت سلطة البابا الزمنية تنهار تدريجياً وتسير في طريق الزوال.

ومن مميزات هذا الدور أيضاً ظهور المدن التجارية الكبرى في



الولايات الصليبية في سوريا ولبنان

أوروبا عموماً وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية خصوصاً. ويعود الفضل في نمو هذه المدن وازدهارها إلى الحركة التجارية والحربية الناشطة التي أوجدتها الحروب الصليبية طوال قرنين كاملين.

وهذه أهم النتائج التي أسفرت عنها الحروب الصليبية، ويجدر بنا، قبل أن نختم هذا البحث، أن نشير إلى أن بعض هذه النتائج يعود الفضل فيها - إلى جانب الحروب الصليبية- إلى الاحتكاك الحضاري الطويل الذي حصل بين العرب والأوروبيين عن طريق الأندلس وصقلية وجنوبي إيطاليا.

5- الخاتمة

في السنة 1274، طالب البابا غريغوريوس العاشر في مجمع «ليون»، في فرنسا، تنظيم حملة صليبية جديدة. لكن نداءاته لم تلق الجواب الشافي وظلّت معلقة في الهواء. فالراغبون في القتال في الشرق من أجل قبر السيّد المسيح، كانوا قلائل. والموقف السلبي من الحملات الصليبية السابقة، كان قد تجذّر وترسّخ إلى حد أن أحد المؤرّخين الإيطاليين كان يقول: «إن الرب لم يشأ استعادة القبر المقدّس من جديد».

وفي 26 نيسان من السنة 1289، استولت قوات الملك الأشرف خليل قلاوون على إمارة طرابلس الصليبية. وفي 18 أيار السنة 1291، سقطت عكا، وحوّلها المسلمون فيما بعد إلى أنقاض. وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود.

إن مؤلّف كتاب «البكاء على سقوط عكا»، الراهب الدومينيكاني «ريكولدو دي مونتي كروتشي»، كان قد ذكر في أواخر القرن الثالث عشر إلى أنّ فشل الحملات الصليبية يعود إلى كون الدول الأوروبية أو الغرب، على وجه العموم، «رفض أن يقدم للأرض المقدّسة دعماً فعالاً»، لأن فكرة الاستشهاد من أجل القدس، لم تعد، برأي هذا الراهب، تحمل الإرتياح المعنوي.

في الواقع نرى أن الحروب

الصليبية قد توقّفت لأنها قدّمت البرهان الجلي الساطع على عقمها. كما أن الحوافز الاجتماعية التي استثارتها فيما مضى، في القرن الحادي عشر، قد فقدت قوّتها في غضون 200 سنة. لقد قامت، في القرون التالية، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب الصليبية من أجل الأرض المقدّسة، ولكنها أخفقت جميعها؛ فكان عهد الحملات الصليبية قد انتهى.

ومما لا شك فيه ان هذه الحملات التي دامت زهاء 200 سنة، كما ذكرنا، لم تمرّ دون أن تترك أي أثر. ولكن هناك أمر آخر، غني عن البيان، هو أن الأهداف المباشرة التي طرحها ملهموها ومنظّموها والمشتركون فيها، لم تتحقق، وأن النتائج التي أُحرزت كانت قصيرة الأمد جداً. فإن الدولة اللاتينية الإقطاعية والإمارات التي انبثقت منها، والتي أسّسها الإقطاعيون الغربيون في الشرق، قد دامت بالفعل، في أغلبيتها، حقبة زمنية قصيرة نسبياً. وكانت تمزّقها التناقضات الاجتماعية والدينية والإتنية الداخلية، فلم تستطع أن تصمد تحت ضغط العالم الإسلامي، وسرعان ما خرجت من الساحة. لقد طمر رمل النسيان آثار الفرسان المدرّعين قبل أن تبهت في الغرب الذكريات عن أفعالهم القاسية والبطولية بزمن طويل. ومنذ أواخر القرن الثاني عشر، وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر، أصبحت الأراضي البيزنطية تغري كثيرين من الأسياد الأوروبيين أكثر بكثير من بلاد الشام، وأخذ تدفّق رجال الطبقة الارستقراطية من الغرب إلى إمارات الفرنجة في سوريا ولبنان وفلسطين يقل أكثر فأكثر. وعدا ذلك، وجد عدد لا يستهان به من الفرسان الفرنجة، مع مرّ الزمن، مخرجاً من الرغبة في القتال والحرب بالانتماء إلى الجمعيات الرهبانية العسكرية التي لم يكن نشاطها يرتبط بالدفاع عن الشرق اللاتيني فقط. وعلى كلّ حال، كانت الحملات الصليبية تعني بالنسبة للطبقة الإقطاعية في أوروبا الغربية سفك الدماء بمقادير هائلة؛ ذلك أن النجاحات في الشرق العربي، بما فيها أبسطها واصغرها، كانت توقع ضحايا كبيرة.

ومما لا شك فيه أن التعرّف إلى الشرق أسهم في إحداث تغييرات في نمط حياة الأسياد في الغرب، فإن الفارس الصليبي كانت تستحوذ عليه، بعد عودته إلى الوطن، مطامح جديدة، وكانت تظهر عنده أدلّة تقييميّة جديدة. ولم يكن ليعارض الاستعاضة عن لباسه الخشن المغزول في البيت، بالألبسة الشرقية الناعمة والجميلة؛ وتزيين جدران منزله بالسجاد؛ والاستعاضة عن المرآة من البرونز المصقول أو من الفولاذ بالمرآة الزجاجية.

خلاصة القول، إن حاجات الإقطاعيين تزايدت، وإن بنية الإقطاع تبدّلت؛ وفي الوقت نفسه أخذت تدخل حيّز الخدمة أكثر فأكثر، وسيلة موثوقة لتلبية الحاجات وهي النقود. لقد اقتبس الغربيون من الشرق الكثير الكثير من العادات والتقاليد والصناعات المتطوّرة في صنع الأقمشة حسب النمط الشرقي ومنها نوعان «الداما والموصلين»، «نسبة إلى دمشق والموصل»، ونوع الأطلس. وكذلك انعكس تأثير الشرق على نطاق واسع جداً في ميدان الآداب والمعيشة.

وباختصار نذكر: لقد نقل فرسان الفرنجة، منجزات شعوب الشرق إلى تربة الغرب، الأمر الذي أدّى أو كاد إلى بناء ثقافة جديدة في الغرب الأوروبي. إنما، ونقولها بكلّ تأكيد، إن الحروب الصليبية عنيت، من وجهة نظر التقدّم الأوروبي العام، تبديد القيم المادية والموارد البشرية بمقادير كبيرة وعبثاً وعلى المكشوف. وقد ذكر أحد المؤرّخين أن «الحملات الصليبية ومقاومتها من قبل المسلمين المسيطرين على الشرق كانت بالنسبة لبلدان الشرق وبلاد الشام كارثة حقيقية. ذلك أن الفرنجة حملوا إليها الخراب في سياق عشرات السنين، واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى في آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر واستحقوا عن جدارة فائقة كره وازدراء شعوب الشرق. لقد كلّف الجنون الصليبي، أوروبا، من الأموال ومن الأرواح البشرية ما لا عدّ له». لقد كانت الحروب الصليبية ملحمة عسكرية وصراع سياسي وعقائدي واقتصادي لم يشهد له التاريخ مثيلاً أبداً.

القسم الثاني

النهضة العلمية والفنية في الدول الأوروبية

(1300– 1095)

الفصل الرابع

المسيحية تبعث النهضة الفنية في أوروبا

(1300 - 1095)

1- المسيحية توقظ حاسة الجمال

بلغت أوروبا في القرنين الثّاني عشر والثالث عشر شأواً كبيراً في الفنون يضارع ما بلغته أثينا في عصر بيريكلس (Périclès) وروما في عهد أوغسطس قيصر[1]. ومن أهم الأسباب التي أدّت إلى هذه النهضة الفنية كان وقوف أوروبا في وجه أهل الشمال وصدّها لغاراتهم وغارات العرب المسلمين، وما بعثت به الحملات الصليبية في نفوس أهلها من نشاط

(1) بيريكلس رجل دولة يوناني (429 - 495). كان رئيس الحزب الديمقراطي في أثينا. في عهده سيطر الأسطول اليوناني على المتوسط، وكان له الفضل الأكبر في إنشائه وإدخاله في حرب الجزر اليونانية. شجع الفنون والآداب وأعطى اسمه لعصره.

- أوغسطس قيصر: إمبراطور روماني (27 ق.م - 14ب.م). شارك في حكم الإمبراطورية مع أنطونيوس وليبيد. بقي لوحده حاكماً بعد انتصاره على أنطونيوس في معركة أكتيوم (31 ق.م) ثم أصبح إمبراطوراً (27ق.م) وبه يبدأ عصر الأباطرة الرومان. تبنّى طيباريوس (Tibère) الذي خلفه على رأس الإمبراطورية. وعصر أوغسطس كان حقبة مشرقة من التاريخ الروماني وحضارته، اشتهر فيه: هوراس وڤيرجيل وتيتليف وسالوست (Saluste) وآخرون غيرهم.

مبدع وقوي، وما أتت به إلى أوروبا من أفكار وفنون من الشرق البيزنطي والإسلامي. وقد أُعيد فتح البحر المتوسط والمحيط الأطلسي لتجارة الدول الأوروبية المسيحية وأمّنت سلامة الخطوط النّهرية، ونُظّمت في مجاري أنهار فرنسا وألمانيا وكذلك خطوط البحار الشمالية. واتّسع نطاق الصناعة والشؤون المالية، فنشأت من كل هذه ثروة لم تعرفها أوروبا منذ أيام الإمبراطور قسطنطين الأوّل (315). وقامت في أوروبا طبقات اجتماعية جديدة شجّعت بأموالها الفنون، ومدناً غنية ذات حكم ذاتي تعمل كل منها جاهدة لكي تشيد كنيسة كبرى أجمل من آخر كنيسة فيها .

وكانت خزائن الأديرة والأبرشيات والبابوية تفيض بالأموال المتدفّقة من العشور وهبات التجار الأثرياء والنبلاء والملوك. وانتهت حركة تحطيم الصور والأيقونات، ولم يعد الفن يوسم بأنه عودة إلى عبادة الأصنام، ووُجدت في الكنائس وسيلة نافعة تغرس بها عقائدها ومثلها العليا في نفوس المؤمنين. كما شيّدت الكنائس الكبيرة وأكثرها على اسم العذراء مريم أم يسوع المسيح، وكانت فسيحة واسعة وفخمة تتّسع للآلاف من أبنائها دفعة واحدة. فبرزت الفنون على مختلف أنواعها، من نحت وتصاوير وفسيفساء وهندسة البناء إلى جانب الآداب والشعر والفصاحة اللغوية.

لقد بقيت الفنون في أماكن متفرقة في أوروبا ولم تقضِ عليها أعمال القبائل البربرية المخرّبة، ولم يمسح معالمها ما طرأ على بلديات المدن والقرى من ضعف وانحلال. وكانت بلاد الشرق اليونانية وإيطاليا البيزنطية هي البلاد التي دخلت منها جمهرة الفنانين والموضوعات الفنية في حياة الغرب الذي بُعث من جديد.

لقد أدخل الإمبراطور شارلمان في خدمته فنانين يونانيين كانوا قد فرّوا من وجه محطمي الصور والأيقونات البيزنطية. وبدأ رهبان دير كلوني الفنانون، في القرن العاشر، عهداً جديداً في فن العمارة الغربية وزينتها، وكان أوّل ما فعلوه أن نقلوا النماذج

البيزنطية. ودأب رهبان دير مونتي كسينو الأوائل في السير على الأساليب البيزنطية. ولما أراد البابا هونوريوس III (1218)، أن يُزيِّن جدران كنيسة مار بولس بالنقوش الجدارية، بعث بطلب صنّاع نقوش الفسيفساء من البندقية، وكانوا متشبّعين بالتقاليد البيزنطية[1].

لقد أبرزت الحوليات وجود جاليات من الفنانين البيزنطيين في عدد كبير من المدن الأوروبية، وكان طرازهم في التصوير الذي شكّل طراز دوتشيو (Duccio) وتشيمابيو (Cimabue) وجِوّتو (Giotto)[2]. وفي بداية هذا العهد جاءت الموضوعات البيزنطية الشرقية، كنقوش سعف النخيل وأوراق الاقنتا[3]، والحيوانات التي في داخل الرصائع. كل هذه الموضوعات أتت إلى البلاد الأوروبية مصوّرة على المنسوجات، وعلى العاج، وعلى المخطوطات المزخرفة، وعاشت مئات السنين في طراز النقوش الروماني. وعادت أشكال العمارة السورية والأناضولية والفارسية: (العقد، والقبة، والواجهة المحوّطة بالأبراج، والعمود المركب الجامع لعدة طرز مختلفة، والنوافذ المجتمعة مثنًى أو ثلاثاً تحت قوس يربطها) إلى الظهور في أبنية البلاد الغربية. إنما، ومع مرور الأيام، كان الفنان ينتقل المرة تلو المرة من المدرسة الفنية التي ينتمي إليها إلى الطبيعة، ومن الأفكار إلى الأشياء،

(1) قصة الحضارة، ج 16، ص 229.

(2) جوتودي بوندوني (Giotto di Bondone): رسَّام فلورنسي (1266 -1337)، واحد من الفنانين الذين بشّروا بالنهضة الفنية في أوروبا. هو الذي رسم الجداريات عن حياة القديس فرنسوا في كنيسته في أسّيزي، إحدى مدن إيطاليا.

– تشيما بيو حنا :(Cimabue giovani) رسام فلورنسي (1240 - 1302) رسم جداريات في كنسة أسيزي.

(3) ويسمى أيضاً في لبنان «شوك الجمل أو شوك اليهود» أو الكنكر، وهو نبات شوكي اتُخذت رسوم أوراقه في الزينة المعمارية.

ومن الماضي إلى الحاضر، ومن تقليد النماذج إلى التعبير عن الذات. وكان الناس في الغرب يفضّلون رشاقة نساء الرسام جِوّتو النبيلة على صور ثيودور الجامدة المنقوشة في الفسيفساء البيزنطية، ويسخرون من خوف الشرقيين من الصور والتماثيل. ولهذا حوّلت الزخارف المحضة إلى صور الملاك المبتسم التي تشاهد في كنيسة رامس (Reims) الكبرى وإلى صورة العذراء مريم الذهبية في كنيسة أميان (Amiens). وهكذا غلبت بهجة الحياة خوف الموت في الفن القوطي[1].

كان الرهبان في الأديرة هم الذين حافظوا على الأساليب الفنية في الفن الروماني واليوناني والشرقي ونشروها، كما حافظوا على الآداب الرومانية واليونانية القديمة.

كانت الأديرة مستقلة. وللمحافظة على هذه الاستقلالية، درَّبت رهبانها على فنون الزخرفة، وعلى الحرف العملية. فقد كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحاً، وأثاثاً للمحراب، وكأساً للقربان المقدس، وصندوقاً وعلباً لحفظ المخلفات، وأضرحة، وكتباً للصلاة. وقد تتطلب نقوشاً من الفسيفساء، وصوراً على الجدران وتماثيل للقديسين وصوراً تبعث التقى في القلوب. وكان الرهبان يصنعون كل هذا بأيديهم. فهم يخططون لبناء الدير وهم يبنونه كما فعل الرهبان البندكتيون في دير مونتي كسّينو (Monte cassino)، الذي لا يزال حتى اليوم شاهداً على ما انجزه رهبانه من عظمة، إن كان في البناء أو في الزخرفة والتماثيل والصور والرسوم وغيرها[2].

(1) قصة الحضارة، ج 16، م.س، ص 231.

(2) دير مونتي كسّينو: تعرّض خلال الحرب العالمية الثانية لقصف من الطيران الحليف وطيران المحور لعدة مرات متتالية، فدمرته القذائف حتى أصبح ركاماً، وبعد انتهاء الحرب أُعيد ترميمه كما كان، استناداً إلى صور له كانت أُخذت من الداخل والخارج من قبل السيّاح ورهبان الدير. أمّا المكتبة القيّمة فقد نقلها الألمان قبل المعركة بقليل إلى أقبية الفاتيكان.

فكل المهارات كانت موجودة لدى الرهبان المنقطعين عن العالم. ولقد كانت المخطوطات المزخرفة التي كتبت في العصور كلها تقريباً من عمل الرهبان، وكانت أرق المنسوجات من صنع أيدي الراهبات والرهبان، وكان المهندسون المعماريون الذين شادوا الكنائس على الطراز الروماني في عهدها الأوّل، رهباناً. وأمدّ دير كلوني غرب أوروبا في القرن 11 وبداية القرن 12 بالمهندسين المعماريين وبعدد كبير من الرسّامين والنحّاتين.

لقد كانت الأديرة في ذلك الزمان الغابر مراكز فنّية شعّت إلى العالم الأوروبي الفسيح فتلقّفها العلمانيون الأحرار وراحوا يعملون لحساب الأثرياء فبرزت الفنون على مختلف أنواعها واتجاهاتها. وقد تجمّعت كثرتهم في فرنسا وإيطاليا وقلّتهم في إنجلترا، في نقابات الحرف، وانتزعوا الفنون من أيدي الرهبان الفنانين وصنّاعها، وراحوا يشيدون هم بأنفسهم الكنائس الكبرى والكاتدرائيات المدهشة.

2 – ازدهار الفنون والحرف في أوروبا المسيحية[1]

في هذا العصر بالذات، كنا نشهد رجالاً ونساء، وبنوع خاص رهباناً وراهبات، يعملون لإشباع الرغبة الغريزية في التعبير، ويجدون متعة في التناسب، والتناسق، والأشكال، ويحرصون على أن يجعلوا النافع جميلاً[2]. ولقد كانت أهم ما تحتويه المناظر التي رسمت في العصور الوسطى صوراً للرجال وللنساء وهم يعملون، وإن غلبت عليهم النزعة الدينية. وكان الهدف الأوّل والأساسي، تجميل أعمالهم وأجسادهم ومنازلهم. وكان آلاف من حرفيي

(1) قصة الحضارة، ج 16، م.س، ص 233.

- Civilisations , Peuples et Mondes, le Moyen Age, Ed lidis, Paris, 2001, p. 279 - 292.

(2) المرجع نفسه.

الخشب يستخدمون السكين، والمثقب، والإزميل المقعّر، والمِنحَت، ومواد الصقل، لحفر النضد والكراسي والمقاعد والصناديق والخزائن وأعمدة الأدراج وخزانات الطعام والشراب، والصور، والتماثيل المقدسة وأجزاء المذابح الكنسيّة وأماكن المرتلين... وتزيينها بما لا يحصى من مختلف الأشكال والموضوعات. وكان نحّاتو الخشب من أهالي البندقية يصنعون في بعض الأحيان براويز للصور أجمل من الصور التي في داخلها وأعظم منها قيمة. وفي القرن 12، بدأ الألمان في صناعة حفر الخشب العجيبة التي أضحت من الفنون الكبرى في القرن السادس عشر، عصر النهضة[1].

أمّا الذين يعملون في المعادن فلم يكونوا أقل شأناً من العاملين في الخشب. فقد كانوا يصنعون الحديد المشغول الرشيق للنوافذ والأقنية، والأبواب الخارجية. وكانت المفصّلات قوية تمتد في عرض الأبواب الضخمة ذات أشكال نباتية متنوعة، كالتي شاهدناها في كنيسة السيدة العذراء (Notre Dame) في باريس. وصنعوا أيضاً مقاعد المرتلين في الكنائس الكبرى، منها المخرّمة، ومنها الصلبة. وكان الحديد أو البرونز أو النحاس يصهر أو يطرق لتصنع منه أجمل المزهريات والقدور والأباريق والمباخر والعلب والمصابيح إلى آخره. وكانت صفائح البرونز تغطي مساحات كبيرة من أبواب الكنائس. وهذا ما نشاهده في كافة الكنائس الكبرى في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وغيرها من البلدان الأوروبية. وقد اشتهر الألمان بصنع الثريات البرونزية الضخمة وكذلك الإنجليز. وكان ولع الفنانين في ذلك الزمان بأن يجعلوا من أبسط الأدوات تحفاً فنية، وكانت مزاليج الأبواب وأقفالها ومفاتيحها، شاهدة على ذلك.

وازدهرت كذلك فنون المعادن

(1) المرجع السابق، ص 234.

النفيسة والأحجار الكريمة، فقد كان للملوك الميروفنجيين صحاف من الذهب. وقد جمع شارلمان في آخن، كنزاً من المصنوعات الذهبية. كما صنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة، وبعضها من الذهب المنقوش، كما نشاهد في كنيسة القديس أمبروز (St Ambrose) في ميلانو وفي كنيستي پيستويا (Pistoia) وبازل (Pasel). وكان الذهب هو الذي تصنع منه عادة الحقة التي يوضع فيها «البرشان» المقدس، والكأس التي تحتوي النبيذ المقدس، والعلب التي تُحفظ فيها المخلفات المقدسة. وفي العام 1212، استخدم الصائغ بونّار (Bonnard)، 309 كلغ من الفضة و12 كلغ من الذهب ليصنع منها ضريحاً لعظام القديسة جنفياف (Geneviève).

وكانت النقوش البارزة الصغيرة على الأواني الثمينة شائعة بين الأغنياء. فظهرت في بعض الأحيان نقوش دقيقة لمناظر غاية في الدقة على علب المرايا وصناديق الزينة المعدة للنساء. وكان العاج إحدى هذه المواد التي استُخدمت للتطعيم. وانبثقت صناعة الخزف من صناعة الفخار فيما أيقظ الصليبيون العائدون من الشرق، أوروبا من العصور المظلمة. وكانت مدينة ليموج (Limoge) الفرنسية تصنع الآنية المطعّمة بالميناء. وقد أصبحت في القرن 12 المركز الرئيسي في غربي أوروبا لصناعة الميناء ذات الحزوز والميناء المصبوبة فوق النحاس. وكان فنانو الفخار المسلمون في إسبانيا المسيحية في القرن 13 يغطّون الآنية الفخارية بطبقة لامعة من القصدير لا ينفذ منها الضوء أو من الميناء ويتخذونها قاعدة للزخارف المصوّرة. وكما في الخشب والحديد والخزف، كذلك في الزجاج، فقد عاد هذا الفن إلى مدينة البندقية، من مصر وبيزنطية، وقد كان فيها حوالي 12 معملاً له. وقد بسطت الحكومة حمايتها على هذه الصناعة. واقترحت أن يطلق على صانعيها اسم «السادة». وفي عام 1278، انتقل صناع الزجاج إلى حي خاص في جزيرة مورانو (Murano)

ليكونوا هناك آمنين من جهة وللاحتفاظ بسرية الصناعة من جهة أخرى.

وكانت الزينة الشخصية والمنزلية من العناصر الجليلة الشأن في فن الحياة، والتي هيأت لها أعمال النساء في تصميم الأزياء، وزينتها الداخلية، وزخرفها، ونسجها والرسم عليها كما هيَّأت أعمالهن في هذا أكثر مما هيَّأت معظم الفنون، من أسباب المتعة التي نستمدّها من وجود الأشياء الجميلة الصامتة معنا أو بالقرب منا. وكان للمنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية ذات المنظر الجميل والملمس اللطيف قيمة عالية في هذا العصر.

ففي عام 1258 برزت نقابة المطرزين في باريس. ويُقال إن البابا أينوسنت الرابع ذُهل حين رأى الأساقفة الإنجليز الذين زاروا روما عام 1246، يرتدون ملابس مطرَّزة بالذهب، وأمر أن تُصنع مثلها لثيابه التي يرتديها في أوقات «القداديس».

لقد كانت فلورنسا في إيطاليا، وشنشيلا في إسبانيا وبواتييه وأراس وليل في فرنسا، تتزعم مدن أوروبا بأكملها في فن أقمشة الجدران والطنافس.

3- الرسوم والتصاوير

31- الفسيفساء

اتخذ فن التصوير في هذا العصر ثلاثة أشكال رئيسية: الفسيفساء وزخرفة الكتب والمخطوطات، والرسوم الجدرانية، والزجاج الملون المزخرف. وبعد ألفي سنة من صناعة الفسيفساء، أصبحت هذه أكثر دقة واتقاناً وأدخل صانعوها معدني الذهب والفضة والزجاج أيضاً في تركيبها فأصبحت قبلة للأنظار. وكان الضوء ينعكس من مكعبات الذهب هذه في زوايا مختلفة فيكسب القطعة كلها نسيجاً حيًا.

وأكبر الظن أن فنانين بيزنطيين هم الذين غطوا القباء الشرقي في إحدى الكنائس القديمة في تورشللو (Torcello)، وجدارها الشرقي بنقوش الفسيفساء التي تَعّد من أروع ما خلفته

العصور الوسطى[1]. وتمتدّ أعمال الفسيفساء في كنيسة القديس مرقس، في البندقية، على مدى سبعة قرون، وتمثّل أنماطها تلك القرون السبعة. وإن الرسم الفسيفسائي المنقوش في القبة الوسطى خلال القرن 12، والذي يمثّل صعود المسيح، لهو أسمى ما بلغه هذا الفن[2].

أمَّا في صقلية النورماندية فقد اتَّحد الفنانون اليونان والمسلمون في صنع آيات النقش الفسيفسائي في كنيسة بلاتينا (Cexpella Platina) وكنيسة مرتورانا (Martorana) في باليرمو (Palermo)، وفي دير مونريال وكنيسة كفالو (Cafalu) عام 1178. أمَّا في روما وضواحيها، فقد صنع الفنانون نقوشاً فسيفسائية متألقة في كنيسة سانتا ماريا ماجوري (Santa Maria Maggiore)، وكنيسة سانتا ماريا في تراستفيري (Trastevere). وكنيسة القديس يوحنا في لاتران. وكان لدير سوجر في سان دنيس (1150)، أرضية فسيفسائية فخمة، وفي دير وستمنستر (إنجلترا) عام 1288، فهناك فسيفساء تثير الدهشة والإعجاب. أمَّا في شمالي جبال الألب فقد طغى فن الزجاج الملوَّن على فن الفسيفساء، كما طغت عليه في إيطاليا نفسها حتى كادت تخرجه منها الرسوم الجدرانية حين أقبل على هذا الفن الفنانون: دوتشو (Duccio) وتشيمابو (Cimabue) وجيتو.

32- نقوش وزخرفة الكتب والمخطوطات

بقي تزيين الكتب والمخطوطات بالرسوم والنقوش الصغيرة من الفضة والذهب المذابين، وبالحبر الملوّن، فناً محبوباً يلائم تقوى رهبان الأديرة وجوّهم الهادئ. وبلغ هذا الفن ذروته في البلاد الأوروبية في خلال القرن

---

(1) قصة الحضارة، ج 16، م.س، ص 242.
- Cvilisations, Peuples et mondes, op cit, p. 204 -214.

(2) إنها فسيفساء من صنع فنانين بيزنطيين (1071 - 1450).

13، ولم يبلغ بعدئذٍ في وقت من الأوقات ما بلغه من خلال ذلك القرن من دقة وابتكار وكثرة. فقد حلّت هذه النقوش محل الرسوم والصور الجامدة والألوان الخضراء والحمراء القاسية التي كانت سائدة في القرن 11. كما حلّت محلها وبالتدريج، أشكال رشيقة رقيقة في ألوان عديدة، على أرضية زرقاء أو ذهبية، وغلبت صور العذراء مريم، ومنذ ذلك الوقت كثر عدد الكنائس[1].

كان الناس في تلك الأيام يعتزّون بكتب الترانيم، وبالأناجيل، والتراتيل، وكتب القداس، وكتب الصلوات، وأدعية الساعات، ويحسبونها الأدوات الحيّة التي تنقل إليهم الوحي الإلهي. وقد عملوا الساعات الطوال على تزيينها الزينة اللائقة، فكان الواحد منهم يقضي، في بعض الأحيان، يوماً بكامله في كتابة الحرف الأوّل من كلمة، وأسبوعاً في كتابة عنوان صفحة معيّنة. وكان فنانو النقوش الصغيرة يعنون بعمق اللون وبهائه، وازدحام الرسوم وحيويتها، أكثر من عنايتهم بأن يخدعوا الناظر حتى يظن أن الموجود أمامه فضاء ذو ثلاثة أبعاد. وكانت أكثر موضوعاتهم تُؤخذ من الكتاب المقدس، أو من الأناجيل غير القانونية، أو من قصص القديسين. وقد أُخذت رسوم الحيوانات والنباتات الخيالية والحقيقية، حيّزاً كبيراً من التصاوير. وكانت الأديرة الإنجليزية موفورة الإنتاج في هذا الفن، فقد أخرجت مدرسة إنجيليا الشرقية كتب مزامير واسعة الشهرة: منها كتاب محفوظ في مكتبة بروكسل، وأخر الأورمبزي (Ormbsy) في أكسفورد، وثالث للقديس هوميروس (Homère) في المتحف البريطاني. لكن خير ما أنتجه هذا الفن كان في فرنسا؛ فقد بدأت بكتب التراتيل التي زيّنها الفنانون لتهدى للملك لويس التاسع، وكانت طرازاً من النقوش الجامعة المركزة. واشتركت هولندا والأراضي

---

(1) قصة الحضارة، ج 16، م.س، ص 244.

المنخفضة في أوروبا في هذه الحركة، فبلغ رهبان لييج (Liége) وغنت، في فن تزيين الكتب والمخطوطات بعض ما بلغه النحات في أميان (Amiens) وريمس (Reims) من السمو الجمالي والرشاقة الفياضة. وأخرجت إسبانيا أعظم آية من آيات هذا الفن في القرن 13 في كتاب ترانيم العذراء مريم هي تسابيح ألفونسو X الملك الحكيم (حوالي عام 1280). فإن صوره الصغيرة البالغ عددها 1226 نقشاً لتشهد بما كان يبذل في كتب العصور الوسطى من جهد وإخلاص. وإن الإنسان ليتردد، إذا أراد أن يحكم على كثير من الكتب، أيهما أجمل الزينة أم النص.

33- النقوش والرسوم الجدارية

أثّرت زخارف الكتب من حيث موضوعها وأشكالها، تأثيراً مباشراً في زخرفة ونقوش الجدران واللوحات المصورة، والصور المقدسة، ونقوش الخزف، والنحت البارز، والزجاج الملوّن. لقد كان من هذه الفنون تبادل كثير في موضوعاتها وأساليبها وتفاعل مستمر، وكان الفنان الواحد في بعض الأحيان يمارسها جميعاً.

وكانت العصور الوسطى تقاوم الفردية وتعدها من الضلالات، وتأمر الفنان العبقري أن يغمر نفسه في أعمال زمانه ومجرى حوادثه. ولم يكن الأفراد إلا أبناء الجماعة. من أجل هذا ابتلع التاريخ جميع أسماء الفنانين الذين نقشوا جدران أبنية القرون الوسطى قبل القرن 13، ولم يبق من هذه الأسماء إلا القليل، وكادت الحروب والثورات والرطوبة تبتلع أعمالهم، ولذلك لم يبق لدينا إلا القليل من الرسوم الجدرانية التي نُفذت قبل القرن 14. ويصف تيوفليس (1190) طريقة تحضير الألوان الزيتية، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ كثيراً من الرقي قبل عصر النهضة[1].

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 16، ص 247.

عندما بُعث فن النقش الجداري الإيطالي، لم يسترشد باعثوه بالتقاليد القديمة، بل استرشدوا بأساليب بيزنطية اليونانية الشرقية. وتحمل أقدم لوحات الفن الإيطالي الموقّع عليها من قبل راسميها في ذلك العهد، أسماء يونانية. ولما زاد الثراء وارتقى الذوق تدريجيًا في إيطاليا خلال القرن 13، واجتذبت الهبات الكبيرة التي كانت تُمنح للفنانين ذوي المواهب الخلاّقة والعالية، شرع الفنانون الإيطاليون: جونتا بيزانو (Guinta Pisano) في بيزا، ولاپو (Lapo) في بستويا، وغيدو (Guido)، في سينّا (Sienna) وبيترو كڤالّيني (Pietro Cavallini)، في أسيزي (Assise) وروما، يهجرون الطريقة البيزنطية الخيالية الحالمة، وينقشون في رسوماتهم اللون الإيطالي والعاطفة الإيطالية. ولهذا نقش غيدو عام 1271، في كنيسة سان دومينكو في سينّا صورة للعذراء، برزت بصورة وجهها الصافي الجميل، أشكال الرسوم البيزنطية التي لا حياة فيها.

وبعد جيل من الزمن، رسم دوتشودي بونِنسينا (Duccio di Bounin segna) (1273 ـ 1319) من مدينة سينّا، صورة العذراء مريم فوق عرشها. وكان الناس يرغبون برسم صورة السيدة العذراء في حجم رائع بيد أعظم فنان يعثرون عليه في أي مكان، فعثروا عليه في مدينتهم. وقد أتمّ الصورة بعد 3 سنوات وأضاف إليها ذلك التوقيع المؤثّر «أم الله المقدسة». كان طول الصورة حوالي أربعة أمتار ونصف المتر وعرضها مترين وثلاثين سنتيمترا.

أمّا في فلورنسا فقد سيطر جيوفانّي تشيمابو Giovanni Cimabue (1240- 1302) ومن أتى بعده من أسرته، لمدة 3 قرون على الفن الإيطالي. وقد استخدم في رسوماته الألوان الزاهية الحمراء والقرنفلية والزرقاء، فنفث في صوره ورسوماته حياة ولألأ لم تعرفهما إيطاليا العصور الوسطى قبل أيامه. وفي آخر سني حياته عُيّن كبير أساتذة الفسيفساء في كنيسة بيزا. وتقول حوليات ذلك الزمان أن جيوفاني وجد في يوم من

الأيام صبياً من الرعاة في العاشرة من عمره يُسمّى جوتو دي بوندوني (Giotto di Bondone) يرسم بقطعة من الفحم، صورة حَمَلٍ على لوح أردوازي، فأخذه إلى فلورنسا وجعله تلميذاً له. وهكذا بدأت أعظم أسرة من الرسّامين في تاريخ الفن[1].

34- الزجاج الملوّن

سبقت إيطاليا شمالي أوروبا بمائة عام كاملة في النقوش الجدارية والفسيفساء، وتأخرت عنها مائة عام في فن العمارة والزجاج الملوَّن. وكان تلوين الزجاج معروفاً عند الأقدمين، ولكن أكثر ما عرف منه كان في رسوم الفسيفساء الزجاجية، فقد ملأ جريجوار دي تور (538 -593) نوافذ كنيسة القديس مارتن بزجاج متعدّد الألوان. أمّا أسقف مدينة ريمس (Reims) فقد زيّن كنيسته (980) بنوافذ تروي سيرة وأخبار القديس بنينيوس (St. Beninus). ويبدو أن اللون قد وضع على الزجاج ولم يصهر فيه. والمرجَّح أن الزجاج ذا الألوان المصهورة قد تفرع من الزجاج المطلي بالميناء. ويصف تيوفيلس عام 1190 هذه الصباغة الفنية الجديدة فيقول إن رسماً أو تصميماً يوضع على منضدة ويقسم أقساماً صغيرة، ويميّز كل منها برمز اللون المرغوب فيه. ثم تقطع قطع الزجاج إلى قطع قلما يزيد طولها أو عرضها على بوصة واحدة بقدر مساحة الرسم. وتلوّن كل قطعة من الزجاج باللون المطلوب، وذلك بصيغة مكوّنة من مسحوق الزجاج المخلوط بأكاسيد (oxides) معدنية مختلفة: الكوبلت للون الأزرق، والنحاس للون الأحمر والأخضر، والمنجنيز للأرجواني... ثم يُحرق الزجاج المطلي بعدئذٍ لتنصهر الأكاسيد والطلاء في الزجاج، وتوضع الأجزاء بعد تبريدها على التصاميم، وتلحّم بعضها ببعض بقطع رفيعة من الرصاص. وأهم ما يفعله الفنان هو مزج الألوان.

(1) قصة الحضارة، ك.س، ج 16، ص 250.

ولم يمضِ نصف قرن على ظهور أوّل مثال للزجاج الملوّن في فرنسا، حتى وصلت صناعته إلى درجة الكمال في تشارتر، فكانت نوافذ كنيستها الكبرى نماذج ينسج على منوالها أو أهدافاً يسعى لبلوغها في سانس (Sens) وليون (Lyon) وبورج (Bourges)، ورون. ومن هنا انتقل الفن إلى إنجلترا، وأوحى إلى صنّاع زجاج كنتربري ولنكلن. وقد نصّت معاهدة عقدت مع فرنسا على أن يُسمح لأحد الرسامين على الزجاج عند لويس السابع (1113 - 1180) بأن يأتي إلى إنجلترا. وفي القرن الثالث عشر كبرت الأجزاء التي يتكوّن منها لوح الزجاج وفقد اللون بعض ما كان في الأعمال الأولى من دقة واهتزاز، وحلّت في أواخر ذلك القرن الزخارف المكوّنة من خطوط خارجية رفيعة حمراء أو زرقاء اللون على قاعدة من لون واحد رمادي، محل الألوان المتناسقة في الكنائس العظمى.

إنَّ روعة الزجاج الملوَّن جاءت مع الكنائس القوطية الكبرى، فلما زال مجد القوط زالت معه نشوة الألوان[1].

35- فن النحت

عندما غزا البرابرة أوروبا وبعض مناطق الشرق، دمّروا الكثير من أعمال النحت. وكانت المسيحية الناشئة تحسب هذه الأعمال من قبيل عبادة الأوثان، لذلك نأى فنانوها عن هذا الفن الراقي. لكن قليلاً منه نجا من هذا الدمار وخاصة في فرنسا، فأثار خيال البربرية بعد أن روِّضت، والثقافة المسيحية بعد أن نضجت. واحتفظت الدولة الرومانية الشرقية من هذا الفن، كما احتفظت من غيره من الفنون، بالنماذج والمهارات القديمة، وأضافت إليها أساليب العرف والتصوف الآسيوية، وعادت فوزعت على الغرب البذور التي جاءت إليها قبلاً من روما. وانتقل النحّاتون البيزنطيون إلى ألمانيا

(1) قصة الحضارة، م.س.، ج16، ص 252 - 253.

بعد أن تزوجت تيودورا من الإمبراطور أوتو الثّاني (972)، وانتقلوا كذلك إلى البندقية، ورفنّا، ورومة، ونابولي وصقلية، ولعلّهم انتقلوا إلى برشلونة ومرسيليا. لقد سخّرت المسيحية النحت كما سخّرت غيره من الفنون لخدمة عقائدها وشعائرها الدينية. نعم إن الفن العظيم هو وليد الإيمان المنتصر[1].

لم يكن النحت إلا مرحلة من مراحل الفن الشامل، وشأنه شأن الرسم والصور الجدارية، والفسيفساء والزجاج الملوَّن. كانت المهمة الأولى للنحت، تجميل الكنائس والأديرة بالتماثيل والنقوش البارزة. أمّا المهمة الثانية فكانت صنع الصور والتماثيل الدينية لبث روح التقوى في الرعية. إلى جانب ذلك كان النحّاتون ينحتون تماثيل لأشخاص دنيويين أثرياء أويزيّنون أشياء لا تمت بصلة إلى الدين. لقد نحتوا، من الحجر والرّخام والمرمر والبرونز والخشب، تماثيل تنطق بالعبقرية والجمال والدقة. وكانت الكنيسة تفضّل أن تصنع تماثيلها من الخشب، لأن المؤمنين كان بإمكانهم أن يحملونها من غير مشقة وهم سائرون في المواكب الدينية خارج الكنيسة أو الدير أو في داخلهما. وكانت التماثيل تلوّن كما كان يحدث في الفن الديني القديم، وكانت في أكثر الأحيان واقعية أكثر منها مثالية، تهدف إلى أن يشعر المؤمن، عندما ينظر إلى صورة أو تمثال القديس، إنه بين يديه.

لقد حطّمت الثورات والحروب العدد الكبير من هذه التماثيل في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها من الدول الأوروبية، لذلك كنا نرى تماثيل دون رؤوس أو أيدي أو أرجل. وفي فرنسا كان البعض يهدف إلى مهاجمة قبور النبلاء المكروهين وما لديهم من مجموعات فنية ودمى. فكنت ترى تماثيل مع أنوف مكسورة ونعوش

(1) المرجع السابق، ص 254.

مهشّمة ونقوشاً بارزة وتيجان أعمدة محطّمة[1].

وكانت التماثيل على مختلف أشكالها تنحت تحت موضوع واحد متكامل. وإذا نظرنا إلى عناصر التماثيل المتناثرة في المتاحف، نضيف إلى الأذى المقصود، سوء الفهم من الذين حطّموها. ذلك أن الفن الذي تمثّله هذه العناصر لم يكن يقصد به أن يُنظر إليه متفرقاً على هذه الصورة. فقد كان في أصله جزءاً لا يتجزأ من موضوع ديني، وكان صرحاً معماريًا متكاملاً. ولهذا فإن ما قد يبدو لنا فجًا قبيحاً وهو بمفرده، قد يكون متلائماً جدًا وجميلاً لما يحيط به من تماثيل ومن حجارة. لقد كان التمثال القائم في الكنيسة عنصراً من مجموعة متكاملة، موضوعاً في المكان اللائق به، وكأنه يستطيل ليطاول ارتفاع الكنيسة الشامخ. فقد كانت الساقان متلاصقتين، والذراعان ملتصقتين بالجسم، وكان تمثال القديس في بعض الأحيان يرقى ويمتد حتى يصل إلى أعلى قائمة كتف الباب.

إلى جانب التماثيل التي كانت تمثّل الأشخاص، نُحتت تماثيل للحيوانات على مختلف أنواعها وأشكالها. ودخل الخيال في هذا الموضوع، فبتّ ترى تماثيل نصفها إنسان والنصف الآخر حيوان، منها تمثال نحت لمعلم موسيقى نصفه إنسان والنصف الثّاني «ديك»، يلقي درساً في الموسيقى. ومنها تمثال لرجل أحاله الساحر كلباً، وظلّت قدماه تلبسان حذاءيه. ومنها «صورة» صغيرة مضحكة جاثمة تحت التماثيل في كنيسة تشارتر، وأميان وريمس. وفي كنيسة استراسبورغ تاج لعمود أُعيد إلى وضعه الأوّل، يمثّل دفن «رينارد» الثعلب: يحمل نعشه خنزير بري وجدي، ويحمل الصليب ذئب، وينير الطريق لهذا الموكب أرنب يحمل شمعة، ودبّ يرشّ الماء المقدس،

(1) قصة الحضارة، م.س، ج16، ص 255، 256.

ووعل يُنشد الذبيحة الإلهية ويتلو حمار صلاة الجنازة من كتاب أسند على رأس هرة صغيرة[1]. وفي كنيسة بفرلي (Beverly) نرى ثعلباً على رأسه قلنسوة راهب يرتقي منبراً ويعظ مجموعة من الأوز متدينّة تقية. وفي مدينة ليون يوجد تمثال لستة عشر ثوراً تخور فوق أبراج الكنيسة الكبرى، ويُقال إنها تمثّل الجواميس القوية التي ظلت السنين الطوال تنقل الصخور من المقالع إلى الكنيسة القائمة على رأس الجبل.

واتّسعت الكنائس أيضاً لحدائق النباتات، والفاكهة، وأزهار الريف الفرنسي، أو الإنجليزي، أو الألماني. أمّا في الفن القوطي فظهرت مجموعة من النباتات المحلّية تدهش الإنسان لكثرت عددها وأنواعها، نُحتت على قواعد الأعمدة وتيجانها والأجزاء الشبه المثلثة التي بين «العقود» والعقود نفسها والأعمدة أيضاً والمنابر ومقاعد المرتلين، وقوائم الأبواب والمصاطب. وهي الأشكال المحبّبة من البيئة التي رسمتها وقد بعث فيها المؤلف الحياة. أمّا هذا العالم الكبير من النبات والازهار والحيوان والطيور، فكان في المرتبة الثانية إذا قيس بالموضوع الرئيسي في فن النحت، خلال العصور الوسطى وهو حياة الإنسان وموته. ففي كنائس تشارتر وليون وبورج وغيرها، نقوش أولية تروي قصة «الخلق». وثمة نقوش أخرى في بعض الكنائس الأوروبية، تصوّر أشهر السنة وما اختص به كل شهر منها من عمل وبهجة. وتبيّن نقوش أخرى أعمال الإنسان فتصوِّر الفلاحين في الحقل أو عند معصرة الخمور أو يقودون الثيران والخيول وهي تشقّ الأرض أو تجر العربات. إلى آخر ما هنالك من موضوعات. فعلى الواجهة الغربية في كنيسة نوتردام في باريس، صورة امرأة رشيقة معصوبة العينين تمثل المعبد، وأمامها امرأة أجمل منها في ثياب

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 16، ص 257.

ملكية وعليها سيماء من اعتادت على الأمر والنهي وتمثل الكنيسة بوصفها عروس المسيح.

يوجد في فن النحت القوطي عمق في الشعور، وتنوع ونشاط في الحياة، وتعاطف مع أشكال عالم النبات والحيوان جميعاً، وفيه رقة وظرف ورشاقة، فهو معجزة من الحجارة، لا تكشف عن اللحم بل عن الروح، هذه كلها تحركنا وتشبعنا بعض ما كان لها من جاذبية.

لقد بلغ النحت في العصور الوسطى درجة عالية من التناسق والمهارة، راح بعدها يغامر في اتجاهات وصياغات فنية جديدة تكاد لكثرتها تبلغ حد التهوّر. وتآلفت الفنون وتوحّدت، كما لم تتآلف أو تتوحد من قبل ولا من بعد، في المغامرة الواحدة وفي الرجل الواحد.

* * *

الفصل الخامس

الفنّ القوطي

(1095 -1300)

1- الكاتدرائيات[1]

11- توطئة

خلال ثلاثة قرون (1015 -1315) شيَّد الأوروبيون عدداً كبيراً من الكنائس والكاتدرائيات، وكان عددهم آنذاك لا يتجاوز خُمس عددهم الحالي. وكانت الكنائس، في أكثر الأيام قدسيّة (أيام الأعياد والآحاد)، قلما تزدحم بالمؤمنين. نعم لقد كان السكان قليلو العدد لكنهم كثيرو الإيمان، وكانوا فقراء، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم الأموال الطائلة كي تبنى هذه المعابد في طول أوروبا وعرضها.

وفي المدن الكبرى كانت تبنى الكاتدرائيات بكثرة، لأنه كان من المرغوب فيه أن يجتمع، سكان بعض

(1) الكاتدرائية هي الكنيسة الرئيسية في الأسقفية، وفيها يكون مقرّ الأسقف. وكانت الكاتدرائية من جهة المساحة والحجم هي الأكبر والأضخم بين الكنائس.

المدن مثل فلورنسا، وبيزا، وتشارتر ويورك، في صرح واحد في بعض المناسبات الكبرى. وكذلك كان لا بدّ أن تتسع كنيسة الدير للعدد الكبير من الراهبات والرهبان ومن المؤمنين. وكان لا بدّ من أن تحفظ المخلفات المقدسة في أضرحة خاصة تتسع هي أيضاً للصفوة من العابدين، وكانت الحاجة تدعو إلى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة، وإلى مذابح جانبية في الأديرة والكنائس التي ينتظر أن يتلو كهنتها العديدون القداس اليومي. وكان الاعتقاد السائد أن مذبحاً يخصّص لكل قديس محبوب قد يدعوه إلى إجابة طلبات من يتوسّلون إليه.

أمّا نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ مما يُجمع من الأموال في كرسي الأبرشية. وكان الأساقفة يلجأون إلى الأمراء والملوك للتبرع، كما يحصل اليوم في كثير من المدن والقرى. وكانت المنافسة الطيّبة تثار بين المدن التي أضحت فيها الكاتدرائية رمزاً لثرائها وسلطانها، تتحدى بهما غيرها من المدن. وكان الإكليروس يعدون المتبرعين بالأموال، بأن تُغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم. كما كانُ يطاف بالمخلفات المقدسة في الأبرشية لتحفز الناس إلى العطاء والبذل والسخاء وكان التنافس في بذل الأموال للبناء شديداً[1]. حتى أنه في كثير من الأحيان تأتي أموال كثيرة من بلاد أجنبية، كما حدث لكاتدرائية مدينة تشارتر. ولم يكن الناس أنفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستغلّون. لقد كانت الكنائس، عدا عن كونها بيوت الله، أيضاً بيوتاً للناس.

12- مهندسو الكاتدرائيات

إذا كانت العمارة هي فن تخطيط البناء وتجميله، وتوجيه القائمين بتشييده، فإن علينا أن نرفض، في حالة الفن القوطي، الرأي القديم القائل بأن

(1) قصة الحضارة، م.س، ج16، ص 266.

الرهبان والكهنة هم مهندسو هذه الصروح. لقد كانت مهمتهم أن يصوغوا حاجتهم، وأن يتقدّموا بفكرة عن البناء المطلوب، وعن الأرض التي ستحمل هذا البناء وعن الأموال المطلوبة للبناء[1].

قبل عام 1050، كانت العادة، كما حصل في دير كلوني، أن رجال الدين، وخاصة الرهبان، هم الذين يصمّمون البناء ويضعون الخطة ويُشرفون على البناء. أمّا بعد هذا التاريخ، فكان بناء الكاتدرائيات الكبرى يتطلب استخدام مهندسين محترفين من غير الإكليروس، الاّ قلة منهم لا تذكر. وكان المهندس يُسمى في تلك الأيام الخوالي «رئيس البنّائين» وأحياناً «رئيس المشيّدين». فهذا الرئيس يبدأ حياته بنّاءً يعمل بيده في البناء الذي يشرف عليه. ولما استهلّ القرن 13 وعظم الثراء، شُيّدت الصروح الكبيرة وزاد التخصص، وأصبح «رئيس البنائين» يضع الخطط ويعرض المناقصات ويقبل الشروط الموضوعية ويخطّط الأرض، ويضع الرسوم، ويحصل على المواد ويأتي بالعمّال والفنانين ويدفع لهم أجورهم ويشرف على أعمال البناء من البداية إلى النهاية.

وفي فصل الشتاء كانت ساعات العمل تدوم من شروق الشمس إلى مغيبها، وفي الصيف، من مطلع الشمس إلى قُبيل الغروب، مع السماح للعمال بوقت محدَّد يتناولون فيه وجبة غذائهم. وكان المهندسون الإنجليز يتقاضون في عام 1275، 12 بنساً في اليوم، تضاف إليها أجور الانتقال وهدايا في بعض الأحيان.

13- أشكال الكاتدرائيات

كان تخطيط أرض الكاتدرائية في جوهره تخطيط البازليك الرومانية: فهو صحن مستطيل ينتهي بمحراب وقبة، ويرتفع فوق طرفين وبينهما، إلى سقف قائم على جدران وأعمدة. وطرأ على

---

(1) المرجع السابق، ص 267.

هذه البازليك البسيطة تطور معقد ولكنه جميل وفتان، فأضحت الكاتدرائية الرومانية أولاً والقوطية في ما بعد تُبنى بشكل صليب لاتيني. وأخذت مساحة الأرض تزداد بفضل المنافسة أو الحماسة الدينية حتى أضحت مساحة كنيسة نوتردام في باريس /63/ ألف قدم مربعة، وكنيسة تشارتر أو ريمس /65/ ألفاً وكنيسة أميان /70/ ألفاً وكولوني حوالي /90/ ألفاً. وكنيسة القديس بطرس في روما /100/ ألف. وكانت تبنى الكنائس ومذبحها باتجاه الشرق، أي نحو القدس. من أجل هذا كان المدخل الرئيسي في الواجهة الغربية التي تستقبل زخرفتها الخاصة شعاع الشمس عند الغروب. ومما زاد روعة الواجهة الغربية ومهابتها أن أُقيم حولها من الجانبين برجان يُستخدمان، ليس فقط للأجراس، بل لتلقي ضغط الواجهة الجنوبي، وضغط طوب الأجنحة. وكان في المباني النورموندية والإنجليزية، برج ثالث ذو نوافذ كثيرة، وكان هذا البرج بمثابة «فانوس» ينفذ منه الضوء الطبيعي إلى وسط الكنيسة. وقد أراد المهندسون القوط المولعون بالأشكال الرأسية أن يضيفوا برجاً رفيعاً مستدق الطرف لكل واحد من هذين البرجين، غير أن المهارة الفنية أو الحماسة أو الأموال، لم تسعفهم فسقطت بعض هذه الأبراج المستدقة كما حدث في «بوفيه». وفي بعض الأحيان كانت الأبراج تُبنى منفصلة عن بناء الكنيسة، كما حصل في برج بيزا (Pisa) المائل أو برج جيتو في فلورنسا. ولعل من شادها قد تأثر بالمآذن الإسلامية، ثمّ عاد فنشر هذا الطراز في فلسطين وسوريا ولبنان، على أيام الفرنجة الصليبيين، وأصبحت هي أبراج الأجراس في المدن الشمالية.

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى. وقد سمح مبدأ «بناء العقد» بإيجاد فضاء يغطي أوسع رقعة من السطح الذي يسهّل وجوده، السقف الخشبي، المصنوع من خشب السنديان الناشف، أو العوارض المرتكزة على الأعمدة.

وهكذا كانت الكاتدرائية تشاد،

مرحلة في أثر مرحلة، خلال عشرة أعوام أو عشرين أو مئة عام. فإذا تمّت وأصبحت جاهزة للصلاة، دشّنت باحتفال ديني فخم، يجتمع فيه كبار الأحبار والأساقفة والأعيان والنبلاء والحجاج وجميع اهل المدينة. ويظلّ الناس قروناً طوالاً يقرأون على أبوابها، ونوافذها، وتيجان أعمدتها وجدرانها ما حفر أو صوّر عليها من تاريخ دينهم وقصصه. يقرأون قصة خلق الكون، وسقوط آدم ويوم القيامة والحساب، وسير الأنبياء والقديسين. كل هذا نجده في الكنيسة فتتكون منه موسوعة حجرية كبيرة من الدين المسيحي. وكان المسيحي التائب والمؤمن، يرجو أن يُدفن حين يموت، بالقرب من تلك الجدران التي تمتنع الشياطين والأبالسة عن الاقتراب منها أو حولها. ويأتي الناس، جيلاً بعد جيل للصلاة في الكاتدرائية، ويخرجون جيلاً بعد جيل من الكنيسة إلى المدافن التي حولها. وتظلّ الكاتدرائية المرتفعة عليهم في غدوهم ورواحهم بهدوء الحجارة الساكنة حتى يجيء الموت الأعظم، ويموت الدين نفسه، فتستسلم هذه الجدران المقدسة إلى الدهر الذي لا يبقي على شيء، أو حتى تهدم هذه الكاتدرائية لتبنى على أنقاضها هياكل جديدة لدين جديد كما حصل للصليبيين بعد خروجهم من الشرق، أو للشعب الإسباني بعدما وصل المسلمون إلى الأندلس.

2- نشوء الفن المعماري القوطي وارتقاؤه

21- تعريف هندسة البناء القوطي

يمكن تعريف هذه الهندسة، بأنها: حصر ضغط البناء في أماكن خاصة، وتوازن هذا الضغط، وتأكيد الخطوط الرأسية، والقباب المضلّعة، والأشكال الدقيقة. وقد نشأ هذا الفن عن طريق إيجاد حلول للمشاكل الطارئة أثناء البناء: فالخوف من احتراق البناء أدّى إلى إقامة القباب من الحجارة والآجر. وازدياد ثقل السقف أوجب بناء الجدران السميكة والدعامات السمجة. ووجود الضغط السفلي في كل مكان حدّد اتساع

النوافذ. والجدران السميكة ظلّلت النوافذ الضيقة. ولهذا أصبح داخل الكنيسة شديد الظلمة لا يتناسب مع جو البلاد الشمالية المظلم والرمادي في أكثر الأيام. وقلّلت القبة المضلّعة ثقل السقف فأمكن بذلك إقامة الأعمدة الرفيعة، وحصر التوتر في أماكن محدّدة، كما أن تركيز الضغط وتوازنه أكسبا البناء استقراراً من غير زيادة في الثقل. وسَمَحَ الارتكاز بطريق المساند، بإنشاء نوافذ طويلة في الجدران القليلة السماكة، وكانت هذه النوافذ مجالاً مغريا لممارسة فن الزجاج الملون. كما أن الإطارات الحجرية التي تعلو النوافذ المركبة قد شجّعت على قيام الفن الجديد، فن النقوش الغائرة أو الرسوم المسطّحة. ولما تحسّنت طرق احتمال الضغط على هذا النحو، وأمكن زيادة ارتفاع صحن الكنيسة، وأبرزت الأبراج الكبيرة، وأبراج الأجراس الرفيعة، والعقود الدقيقة، أهمية الخطوط الرأسية وأنتجت ما يمتاز به الطراز القوطي، من علو شامخ ورشاقة تبعث البهجة في النفوس. هذه الخصائص مجتمعة جعلت الكاتدرائية القوطية أعظم ما أنتجته النفس البشرية وأجلّ ما عبّرت به عن مشاعرها.

لقد استطاعت الهندسة القوطية أن تطوّر عدة أمور ومشاكل في العمارة التي سبقتها. مثال ذلك أن مشكلة التوفيق بين الرشاقة الرفيعة والصلابة المستقرة، قد حلّتها الهندسة المعمارية القوطية أحسن مما حلّها أي فن معماري قبل وقتنا الحاضر. على أن المهندس القوطي لم ينجح ولم يوفّق على الدوام، فإن تكن كنيسة تشارتر لا تزال قائمة سليمة من الشروخ «والفسوخ»، فإن موضع المرتلين في كاتدرائية بوڤيه، تهدم بعد 12 عاماً من بنائه.

لقد تمكّن الفنانون القوط من إيجاد جمالية رائعة في البناء، إذ ملأوا الفجوات والنوافذ بالزجاج الملوّن. ووضعوا في الفتحات قضباناً حجرية صغيرة منحوتة على صورة أقداح أو غيرها من الأشكال. وأخذت أشكال هذه الحلى التي على شكل العصي تزداد كل يوم تعقيداً، ونشأت من هذا

التعقيد طرز من العمارة القوطية أُخذت أسماؤها من الخطوط الرئيسية في هذه الزخارف: كالعقد الرمحي، والطراز الهندسي، والمستدير الخطوط، والعمودي والكثير الألوان. وأنتجت عمليات أخرى شبيهة بهذه العمليات وطبّقت على سطوح الجدران. فوق مداخل البناء، أنتجت ما يُسمّى «بالنوافذ الوردية»، كانت زخارفها الخطية سبباً في إطلاق لفظ «المشمع» على الطراز الذي بدأ في كنيسة نوتردام عام 1230. وبلغ درجة الكمال في كنيستي ريمس وسانت شابيل (St. Chapelle). وما من شيء يفوق جمال النوافذ الوردية في الكاتدرائيات القوطية سوى العقود العليا في القبة[1].

22 - الطراز القوطي الفرنسي (1133- 1300)

لم يبدأ الطراز القوطي من لا شيء، فهناك تقاليد عديدة متعددة قد اجتمعت كلها لتمهد له السبيل: البازليك الرومانية، والعقود، والقباب، والطبقات العليا ذات النوافذ، وموضوعات الزخرفة البيزنطية، والعقود الأرمنية والسُّورية والفارسية والمصرية والعربية، والقباب ذات الزوايا المتقاطعة، والدعامات المتجمعة، والأساليب الغربية، والنُّقوش العربية، والقباب المضلّعة، وأبراج الواجهات، والنزعة الألمانية لما هو مضحك أو شاذ غريب. لقد اجتمعت كل هذه الأشياء في فرنسا، لأن فرنسا كانت، بعد إيطاليا، أغنى أمم الغرب الأوروبي وأكثرها تقدماً في القرن 12، وكانت هي التي قدّمت للحملات الصليبية أكثر الأموال والرجال، والتي أفادت من حوافزها الثقافية.

وكانت فرنسا هي التي تزعّمت أمم أوروبا في التعليم، والآداب، والفلسفة، وكان العالم يعترف بأن

(1) قصة الحضارة، م.س، ج16، ص 288 - 290.

صنّاعها كانوا أمهر الصُّناع من الناحية الغربية من بيزنطية. فقبل أن يجلس على عرشها فيليب أوغست (1180 - 1223)، كانت السلطة الملكية قد انتصرت على نزعة التفكك الإقطاعية، وكان رخاء فرنسا وثروتها، وحياتها العقلية قد أخذت تتجمّع في أملاك الملك الخاصة، وهي الأملاك المعروفة «بجزيرة فرنسا» (Ile de France)، والتي يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً بالمنطقة الممتدة عند مجرى نهر السين الأوسط. وكانت فيها تجارة نهرية رابحة نشيطة تنتقل في أنهار السين والواز (Oise) والمارن والأين (Aisne)، وتخلّف وراءها ثروة استحالت حجارة في الكتدرائيات التي شيَّدت في باريس، وسان دنيس (St. Denis)، وسنليس (Senlis) وشارتر ونوايُون (Noyon) وسواسون (Soissons) واميان (Amiens) وريمس. وأخصب المال التربة التي نما فيها الفنّ[1].

وكانت أولى روائع طراز الفن القوطي في كنيسة سان دنيس، التي تقع في ضاحية باريس المسمّاة بهذا الاسم. وهذه الكنيسة الرّائعة شيّدت بفضل رجل الدِّين المسيحي «سوجر» (1081 -1151)، رئيس أحد الأديرة البندكتية، ونائب الملك في فرنسا. وكان حسن الذوق ويحبّ الأشياء الجميلة وقد استعملها ليزخرف بها كنيسته[2]. ففي عام 1133، جمع سوجر الفنانين والحرفيّين من كل البلاد، وقرَّر أن يبني كنيسة جديدة للقديس دنيس شفيع فرنسا، ولتكون هذه الكنيسة أيضاً مقراً لرفاة الملوك الفرنسيين. وهكذا اقنع لويس السابع وحاشيته بتقديم الأموال اللازمة لهذا البناء. وقد دشّن هذا الصرح في عام 1144، وشهد الحفل ملك فرنسا

(1) المرجع السابق، ص 292، 293.

Civilisations, Peuples et mondes, op.cit, p 431.

(2) المرجع نفسه.

وملكتها ومئات من الفرسان. ولم يَبق من هذه الكنيسة إلا أجزاء منها: وهي الواجهة الغربية، وفرجتان في الصحن والمصليات التي على جانب الطريق وقبو الكنيسة. أمّا الجزء الأكبر من داخل الكنيسة فهو بناء شيّده بيار دي مونتريو (Pierre de Montreux) بين عامي 1231 و1281. والقسم من الطراز الرومنسي. أمّا الواجهة الغربية فتختلط فيها العقود المستديرة والمستدقة ومعظم تماثيلها المنحوتة هي من عهد «سوجر». وتشمل على ما لا يقل عن مئة صورة ورسم، والكثير منها فردي الطابع.

أمّا كنيسة نوتردام في باريس (Notre Dame de Paris) التي شيّدت على نهر السين [illegible] فاستغرق بناؤها حوالي الخمسة والسبعين عاماً (1163 - 1238)، وهذا دليل على ضخامة العمل الذي استلزم بناؤها. وهذه الكنيسة يصنّفها العلماء في مصاف «أنبل ما أنتجته أفكار الإنسان من آراء في فن العمارة والبناء»[1].

والنوافذ الوردية في هذه الكنيسة هي أكبر من النوافذ المخطّطة وجمال التلوين. والتماثيل التي بها تبرز أحسن ما أنتجه الفن منذ عصر قسطنطين الكبير وبناء الكاتدرائية ريمس. ولقد نحتت في تلك العصر القائم فوق المدخل الرئيسي رسوم يوم الحساب، فصورة السيد المسيح هنا ذات جلال هادئ والملك الذي عن يمينه كانا من أعظم الانتصارات التي أحرزت للفن القوطي. وخير من هذا كله صورة عذراء العمود القائمة فوق المدخل الشمالي. ويكاد فن النحت القوطي يعلن في هذه الصورة الجميلة استقلاله عن فن العمارة وينتج آية خليقة بأن تنتزع مما حولها وتقام بمفردها معلنة عن فوز هذا الفن. وانتهى في هذه الكنيسة طور الانتقال وحلّ عصر الفن القوطي.

---

(1) قصة الحضارة، م.س، ج16، ص 295.

Civilisations, Peuples et mondes, op cit, p 432.-

أمّا كنيسة تشارتر (على بعد 75 كليومتراً في باريس) فقد اعتمدت شهرتها على ما تحتويه من تماثيل منحوتة وزجاج ملوَّن. فهذا القصر، قصر العذراء، تسكنه عشرة آلاف شخصية منحوتة أو مرسومة من رجال، ونساء، وأطفال، وقديسين، وشياطين، وملائكة، وأشخاص الثالوث الأقدس. ويوجد في مدخل الكنيسة وحده، ألفا تمثال، تضاف إليها تماثيل أخرى مستندة إلى الأعمدة المقامة في داخل البناء. ويوجد أيضاً في أعلى الكنيسة تماثيل منحوتة بعناية وبالحجم الطبيعي. ويقوم في الباب الأوسط رسم رائع للسيد المسيح ليس كغيره من الرسوم التي نحتت في ما بعد. ويتصل بالتجويف الداخلي لعقد الباب 19 تمثالاً للأنبياء والملوك والملكات، وهي نحيلة متصلبة تلائم بشكلها هذا، عملها بوصفها أعمدة الكنيسة.

وإذا دخل الإنسان إلى الكنيسة انطبعت في نفسه أمور تمتزج بعضها ببعض تمثلها الخطوط البسيطة في الصحن والقبة، التي لا تكاد تبلغ في حجمها أو جمالها ما يبلغه صحن كنيسة أميان أو ونسمنستر. إن كنيسة تشارتر تمثل العمارة القوطية الناجحة.

كاتدرائية أميان من جهتها بنيت بين 1220 و1288، وقام ببنائها سلسلة متتابعة من المهندسين. ولم يتم بناء الأبراج إلا في عام 1402. وداخلها هو أكثر الصحون القوطية نجاحاً، فهو يعلو في قبة ترتفع حوالي 47 متراً، ويُخيَّل إلى الناظر إنها تجتذب الكنيسة إلى الأعلى، وليست تتحمل ثقلاً. وترتبط بواكي الصحن ذات الثلاث طبقات، جذوع متصلة ممتدة من الأرض إلى القبة فتجعل منها وحدة فخمة ذات عظمة وجلال. وتُعدّ القباب القائمة فوق القبا انتصاراً للتّصميم المتناسق على اختلال النظام الباعث على الحيرة والارتباك.

لقد أثارت فخامة كاتدرائية أميان الغيرة في قلوب أهل مدينة «بوفيه»، فبدأوا ببناء كاتدرائيتهم عام 1227 واقسموا أن يرفعوا قبّتها أعلى من قبة أميان بأربعة أمتار. ووصلوا في مكان المرتلين إلى الارتفاع المطلوب،

ولكنهم ما كادوا يضعون سقفه حتى أنهار. واستفاق جيل آخر من هذه الكارثة، فأعاد بناء مكان المرتلين إلى ارتفاعه السابق ولكنه انهار ثانية في عام 1284، وأُعيد البناء مرة ثالثة وارتفعوا به حوالي 157 قدماً فوق الأرض؛ ولمّا نفد ما عندهم من المال تركوا الكنيسة قرنين كاملين من غير جناحين أو صحن. ولما أفاقت فرنسا آخر الأمر من حرب المائة سنة في عام 1500، بُدئ ببناء الجناحين الضخمين، ثم أُقيم فوق ملتقى الجناحين برج فانوس بلغ ارتفاعه خمسمائة قدم ليعلو بذلك على شمروخ كنيسة القديس بطرس في رومة. وانهار هذا البرج أيضاً في عام 1573 وانهار معه جزء كبير من الجناحين ومكان المرتلين. ثمّ اقتنع أهل بوفيه الأبطال آخر الأمر بحل وسط: فرمموا مكان المرتلين وبلغوا به ارتفاعه السابق، ولكنهم لم يضيفوا إليه صحناً، ولهذا فإن كاتدرائية بوفيه كلها رأس بلا جسم؛ فهي من خارجها واجهتان لجناحين جميلين قيمين، وقبا تحيط به وتخفيه السنادات؛ ومن داخلها موضع للمرتلين كالكهف يتلألأ بالزجاج الفخم الملوّن. ويقول أحد الأمثال الفرنسية القديمة إنه لو استطاع الإنسان أن يضم موضع المرتلين في كنيسة بوفيه إلى صحن كنيسة أميان، وإلى واجهة ريمس وشماريخ تشارتر، لو استطاع ذلك لكانت الكاتدرائية القوطية تبلغ حد الكمال.

وإذا ما عاد النّاس بخيالهم في العصور المقبلة إلى ذلك القرن الثالث عشر فسوف تتملكهم الحيرة فلا يدرون من أين كان لأهل هذا القرن ذلك الثراء الذي أقاموا به على الأرض تلك الصروح الفخمة المجيدة. ذلك أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف ما صنعته فرنسا في ذلك الوقت - بالإضافة إلى جامعتها، وشعرائها، وفلاسفتها، وحروبها الصليبية - إلاّ إذا وقف بنفسه أمام واحدة تلو واحدة من تلك الصروح القوطية الجريئة التي لا تعدو أن تكون هنا مجرد أسماء: نوتردام، وتشارتر، وريمس، وأميان، وبوفيه، وبروج (1195 –1350) وغيرها وغيرها.

23- الطراز القوطي الإنكليزي (1175 - 1280)

زحف الطراز القوطي من تشارتر و«جزيرة فرنسا» إلى المناطق الفرنسية، ثمّ عبر الحدود إلى إنجلترا، وبلاد السويد وألمانيا وإسبانيا، ثمّ انتقل أخيراً إلى إيطاليا. وقد كان المهندسون والصُّناع الفرنسيون يوافقون على ما يكلفون به من أعمال فنية في البلاد الأجنبية. وكان الفن الجديد يُسمّى أينما حل «العمل المولود في فرنسا». ورحّبت به إنجلترا لأنها كانت في القرن الثامن تقريباً نصف فرنسية. لقد استمدّ الفن القوطي أصله من نورمنديا لا من جزيرة فرنسا. واحتفظ بالضخامة النورمندية في إطار قوطي. وحدث الانتقال من الطراز الرومنسي إلى الطراز القوطي في فرنسا وإنجلترا في وقت واحد تقريباً. ففي الزمن الذي كان «العقد» المستدق يُستخدم في كنيسة القديس دانيس (1140)، أخذ هذا الطراز يعود إلى الظهور في كاتدرائيتي «درهام» وجلوستر، وفي دير «الينابيع» (Fountains Abbey) وما لمزبورغ (Malmsburg). وكان هنري III (1216 -1272) ملك إنجلترا، يعجب بكل ما هو فرنسي ويحسد المجد المعماري الذي بلغته فرنسا في عهد ملكها لويس التاسع. لذلك فرض على رعاياه الضرائب ليعيد بناء دير وستمنسر، ولينفق على مدرسة الفنَّانين - البنَّائين، والنحّاتين، والرسّامين والمزخرفين، والصناع - الذين جمعهم بالقرب من بلاطه لينفِّذوا مشروعه[1].

أمّا الطراز القوطي الإنجليزي، فقد اتّخذ له هذا الفن من النوافذ والعقود الإنجليزية، اسماً آخر هو الفن «بالريشة». وكانت الواجهات والأبواب في هذا الطراز أبسط من مثيلاتها في فرنسا، وإن كانت كنيستا «لنكلن» و«ورشستر» حوتا بعض التماثيل المنحوتة، فقد حوت منها كنيسة ولز (Wells) أكثر منها. ولكن هذه لم تكن

---

(1) قصة الحضارة، م.س، ج 16، ص 306.

القاعدة المتبعة، ولا يمكن على كل حال مقارنة هذه التماثيل في نوعها وعددها، بالتماثيل الفرنسية المقامة على أبواب كنائس تشارتر أو أميان أو ريمس. أمَّا الأبراج فكانت تمتاز بالفخامة لا بالارتفاع. وقد كانوا يتركون القبة منخفضة انخفاضاً مقبضاً للنفس، كما نراها في كنيسة «جلوستر»، و«اكستر». يضاف إلى هذا أن طول الكاتدرائيات الإنجليزية الكبير، لم يكن يشجّع على بذل الجهود التي تجعل ارتفاعها يتناسب مع هذا الطول. فطول كنيسة ونشستر 184 متراً، وطول كنيسة إلي Ely 172 متراً وكنتربري 171 متراً ودير وستمنسر 169 متراً وحتى كنيسة ميلان نفسها لا يزيد طولها عن 157 متراً. وظل الطرف الشرقي للكنيسة القوطية الإنجليزية، هو القبا المربع المعروف في الطراز الانكلوسكسوني، متجاهلاً في ذلك، التطور الفرنسي السهل الذي أنتج القبا المتعدّد الأضلاع أو النصف دائري.

24- الطراز القوطي الألماني (1200- 1300)

استوردت فلاندرز الطراز القوطي من فرنسا في تاريخ مبكِّر، لكنه لقي مقاومة متزايدة في انتشاره نحو الشرق إلى هولندا وألمانيا. ذلك أن رشاقة الطراز القوطي لم تكن تتفق بوجه عام، مع النزعة العقلية الألمانية، وأن الطراز الرومنسي كان أكثر ملائمة لهذه النزعة، ولهذا استمسكت به ألمانيا حتى القرن الثالث عشر. وتعدّ كاتدرائية بمبرج (Bamberg) العظمى (1185 - 1237) مرحلة انتقال: فالنوافذ فيها صغيرة وذات عقود مستديرة وليست فيها مساند متنقلة، ولكن القبة ذات ضلوع في الداخل وذات شكل مستدق.

ونجد في مطلع عهد الفن القوطي الألماني تطوراً في النّحت له شأنه: فقد كان في بداياته يحذو حذو النحت الفرنسي، ولكنه سرعان ما خطا نحو طراز من النزعة الطبيعية البديعة والقوة. فتمثال مريم العذراء في كنيسة بمبرج يبدو في صورة امرأة ذات قوة

وصلابة، وحتما الصفتان اللتان تحبهما ألمانيا على الدوام. وتكاد تكون كل كاتدرائية في ألمانيا، باقية من ذلك العهد، تحتوي تماثيل تستلفت الأنظار، فأحسنها وأجملها كلها تلك التي في كاتدرائية «نومبرغ» (Naumburg) حوالي العام 1250.

وفي عام 1248، وضع، كنراد هوشستادن (Hochstaden) كبير أساقفة كولونيا، اشهر الكاتدرائيات الألمانية وأقلها موافقة للطراز القوطي. وتقدم العمل تقدماً بطيئاً في خلال الفوضى التي أعقبت موت الامبراطور فريدريك الثّاني، فلم تُدشَّن الكاتدرائية إلاّ في عام 1322. وبُنيت هذه الكاتدرائية على غرار كاتدرائية أميان، فترسّمت بدقة الطراز والأسلوب الفرنسيين. مع العلم أن هذه الكاتدرائية لم تنج في الحرب الثانية إلّا بأعجوبة، وتكاد تكون إحدى المعجزات.

أمّا كاتدرائية استراسبورغ فكانت أكثر من السابقة إمتاعاً للنفس. فخارجها يمثِّل الرشاقة الفرنسية وداخلها القوة الألمانية. فقد أفلح الفنان كل الفلاح في أن يجمع هنا بين المهابة والزخرف، حتى ليستطيع الإنسان أن يفهم وصف غوتيه (Goethe)، أشهر الكتاب والشعراء الألمان (1749 - 1832)، لهذه الواجهة بأنها «موسيقى متجمدة». وكتب أيضاً يقول «لما كنت قد نشأت على احتقار العمارة القوطية، فقد أزدريت هذه الواجهة، ولكني لما دخلتها اعترتني الدهشة، وأحسست بما في جمالها من جاذبية»[1]. والزُّجاج الملوّن في الكاتدرائية قديم العهد، ولعلّه أقدم من أي زجاج في فرنسا، والتماثيل المنحوتة الموجودة عند باب الجناح الجنوبي (1230 - 1240) نادرة الجمال.

وفي العام 1793، أمرت لجنة الثورة الفرنسية بتدمير تماثيل الكاتدرائية لتجعل منها «معبداً للعقل». ولكن عالماً في التاريخ الطبيعي، غير معروف

(1) المرجع السابق، ص 314.

الاسم والكنية، أنقذ تمثالي الكنيسة والمعبد بأن أخفاهما في حديقته المخصّصة لعلم النبات. كما أنقذ النقوش التي فوق قوس الباب بأن غطّاها بلوحة عليها نقش فرنسي: الحرية والمساواة والإخاء[1].

25- الطراز القوطي الإيطالي (1200- 1300)

أطلق الإيطاليون في العصور الوسطى على الطراز القوطي اسم طراز «تيدسكو». وأخطأ إيطاليو النهضة مثل خطأهم في أصل هذا الطراز، فاخترعوا له اسماً قوطياً لاعتقادهم أن القوط وحدهم هم الذين يستطيعون إيجاد فن يبلغ هذا القدر من الإسراف. ذلك أن ما في هذا الطراز من كثرة الزخارف وعظمة في الجرأة، لم يكن يتفق وأذواق الإيطاليين ذات النزعة القديمة الطويلة العهد بالنقاء. وإذا كانت إيطاليا قد اتَّخذت الطراز القوطي، فقد كان ذلك عن إباء يكاد يبلغ حد الاحتقار. ولم يكن في مقدورها أن تطلع على العالم بلألأ كاتدرائية ميلانو الغريب وطراز أرفيتو، وسينا (Sienna) واسيزي (Assise) وفلورنسا القوطي - البيزنطي- الرومنسي، إلا بعد أن كيفته بما يلائم حاجاتها ومزاجها. لم تكن الكنائس في إيطاليا بحاجة إلى نوافذ كبيرة تدعو إليها حاجة البلاد الشمالية الباردة القائمة إلى الدفء والضوء. وكانت لذلك تفضّل عليها النوافذ الصغيرة التي جعلت كاتدرائياتها معابد قليلة الحرارة تقي روّادها وهج الشمس. ولم تتقبَّل في يوم من الأيام المنطق الإنساني في الطراز القوطي.

كان للعمارة المدنية في إيطاليا الشمالية والوسطى، شأن عظيم في تنمية الفن القوطي من خلال القاعات العامة، وجدران المدن، والأبواب، والأبراج، وقلاع سادة الإقطاع، وقصور التجار. واتخذت هذه كلها الشكل والزخرف القوطيين، وبدأت

---

(1) المرجع السابق ص 316.

بيروجيا (Perugia) بدار بلديتها في عام 1281، وبدأت مسّينا بدارها العامة في عام 1289، وبولونيا بدارها الشعبية في عام 1290. وبدأت فلورنس بدارها الفذة الرشيقة المعروفة بقصر فايكو (Vecchio) في عام 1298 - وكلها من الطراز القوطي التوسكاني.

وفي أسّيزي (Assise)، شيّد دير القديس فرنسيس وكنيسته العظيمة الاتساع، وهي أوّل كنيسة شيِّدت في إيطاليا على النظام القوطي. وعهد هذا العمل إلى رئيس للبنّائين، ألماني الجنسية، يسميه الإيطاليون جاكوبو الألماني، ولعل هذا هو السبب في تسمية الطراز القوطي في إيطاليا «بالطراز الألماني». أما في سينّا (Sienna)، فقد بنيت الكاتدرائية من الرخام القاتم والأبيض في سطور غير ذات جمال، فبدأ تشييد الكنيسة، عام 1229 وتمّ في عام 1348، وأُضيف إليها في العام 1380 واجهة جديدة ضخمة من تصميم يوحنا بيزانو، وكلها من الرخام الأحمر والأسود أو الأبيض. وكان الفنان الإيطالي مولعاً بالسطوح البراقة الملوّنة، ولم يكن كالفنان الفرنسي مولعاً بانعكاسات الضوء والظل الدقيقة على الأعمدة الداخلية في الأبواب وعلى الواجهات ذات النحت الغائر.

في العام 1264، أمر البابا أوربانوس IV بتشييد كاتدرائية في أرفيتو (ARVITO) القريبة من بولسانا (Bolsena). ووضع تصميمها أرنولدو دي كمبيو (Arnoldo di Cambio) ولورنزو مكتانو (lorenzo Mactano). وظلا يعملان ببنائها من عام 1290 إلى عام 1330. وجعلت واجهتها على طراز كاتدرائية سينّا، ولكنها أجمل منها صقلاً وتنفيذاً، وأحسن منها تناسباً في أجزائها.

لكن ثورة البناء التي اجتاحت إيطاليا في القرن 13 أتت بأعظم عجائبها في مدينة فلورنسا. فقد شاد أرنولدو في العام 1294 كنيسة الصليب المقدس - سانتا كروشه (Santa Croce) واحتفظ فيها بنظام البازليك التقليدي الخالي من الجناحين، ذي السقف

الخشبي. ولا يعتمد جمال الكنيسة على هندستها المعمارية بقدر ما يعتمد على كثرة ما في داخلها من التماثيل، والنقوش المنحوتة والمظلمات، التي تكشف عن مهارة أصحاب الفن الإيطالي السائر نحو النضوج.

ففي العام 1294 أعدّ أرنولدو رئيس المهندسين في المدينة، نماذج أو تصميمات لإعادة بناء كاتدرائية سانتا ماريا ربرتا (Santa Maria Reparta) بحيث تبدو في أسمى حلّة من الضخامة مهما أنفق عليها من أموال. وأتت التبرعات لهذا الغرض وبدأ التشييد. فقدّر ارتفاع القبة الحجرية بخمسين متراً، أي بما يساوي ارتفاع قبة كاتدرائية بوفيه. وقدّر طول وعرض صحن الدار بحوالي 85 متراً في 18. توفي أرنولدو عام 1301، وظلّ العمل متواصلاً وأدخل على تصميمه كثير من التعديلات بإشراف جيتو وبيزانو وبرونيلليسكي (Brunelleseki) وغيرهم. ولم تدشّن إلا في العام 1436، وبدّل اسمها إلى سانتا ماريا دي فيوري (Santa Maria di Fiore). لقد كان صرح ضخم، غريب المنظر، استغرق تشييده ستة قرون، وغطّى مساحة 84 ألف قدم مربعة، وتبيّن في ما بعد أنه يتّسع لمستمعي سافونارولا (Savonarola)[1].

26– الطراز القوطي الإسباني (1300– 1091)

في القرن 12، نقل الرُّهبان الفرنسيون الطراز القوطي إلى إسبانيا الشمالية، كما نقلوا إليها طراز العمارة الرومنسي في القرن الحادي عشر. وكانت كاتدرائية سان سلفادور القائمة في بلدة أفيلاّ الصغيرة (1091)، بداية الانتقال من الطراز الرومنسي إلى القوطي، وذلك بما احتوته من العقود المستديرة، والباب القوطي والأعمدة الشيّقة التي في القبا والتي ترتفع حتى تتصل بالأضلاع المستدقة في القبة.

(1) جيروم سافونرولا، مبشّر بندكتي من فلورنسا (1452 ـ 1498)؛ حاول في فلورنسا، إنشاء حكومة، في الوقت نفسه، ديمقراطية وإلهية . أُحرق حيًّا بتهمة الهرطقة.

وكذلك شُيّدت كاتدرائية في سلمنقة (Salamanca) في القرن الثّاني عشر وأخرى إلى جنبها في القرن السادس عشر، وتكوّن الكنيستان معاً مجموعة من أكبر المجموعات البنائية وأعظمها روعة في إسبانيا. وفي طرقونة (Tarragona) كانت الصعوبات المالية سبباً في إطالة عملية بناء الكنيسة من عام 1089 إلى عام 1375، لكنّ ما يتصف به البناء من بساطة ومتانة يتلائم مع الزخارف القوطية والإسلامية، وما فيها من الأروقة - المكونة من أعمدة رومنسية تحت قبة قوطية - لمن أجمل ما أخرجه فن العصور الوسطى.

وطراز البناء في طرقونة واضح المعالم. أما بورجوس (Burges) وطليطلة وليون، فهي أكثر منها نزعة فرنسية، وتزيد كل واحدة عن التي قبلها في هذا الاتجاه. ذلك أن زواج بلانش القشتاليه من لويس الثامن ملك فرنسا (1200) أدّى إلى زيادة أسباب التدخل الذي بدأه من قبل الرهبان المهاجرون.

لقد بوشر ببناء كاتدرائية بورجوس في العام 1221، وصمّمها مهندس فرنسي غير معروف. وأقام الشماريخ في العام 1442 مهندس ألماني من كولونيا هو جوان دي كولونيا. والذي بنى الناقوس العظيم فوق ملتقى الجناحين كان المهندس البورغوني فيليب (1539 -1543)، ثم قام أخيراً تلميذه جوان دي فالليغو الإسباني بإتمام الصرح كله عام 1567.

كذلك قدّم فرنندو III نفسه الأموال اللازمة لبناء كاتدرائية طليطلة الأكثر فخامة من كاتدرائية بورجوس. ومن الأمثال السائرة في إسبانيا أنّ «في طليطلة أغنى كنائسنا، وفي أفيدو أكثرها قداسة، وفي سلمنقة أعظمها قوة، وفي ليون أعظمها جمالاً» .

وفي العام 1205 بدأ الأُسقف مانريك (Manrique) بتشيّد كاتدرائية ليون (Leon) وتمّ بناؤها في العام 1303. وقد اعتمد المهندسون فيها، الخطّة القوطية الفرنسية وهي أن يكون معظم بناء الكاتدرائية مكوّناً من نوافذ، ولزجاجها الملوّن منزلة عالية

بين روائع ذلك الفن. فتصميم الأرض، التي بنيت عليها مأخوذاً من كاتدرائية ريمس، والواجهة الغربية قد أخذت من تشارتر، والباب الجنوبي الكبير من برجوس. ولهذا تمثّل خليطاً عجيباً من الكاتدرائيات الفرنسية، يحتوي على أبراج وشماريخ مصقولة.

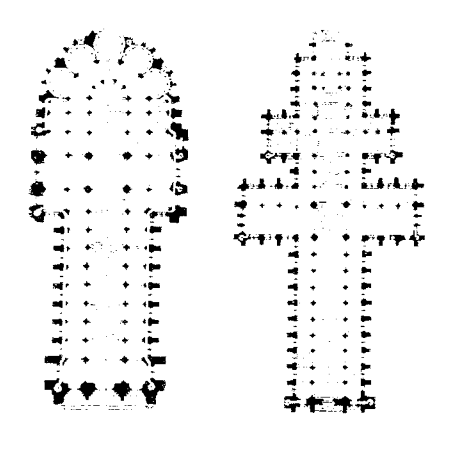
وليست قصور الريف الحصينة وقلاعه، ولا جدران المدن وأبوابها، أقل الأعمال المعمارية في العصور الوسطى نبلاً وفخامة.

* * *

تصميم كتدرائية ريمس (1210 ـ 1300)

تصميم كتدرائية سالزبري (1220 ـ 1250)

تصميم كنيسة قوطية Coupe d'une église gotique



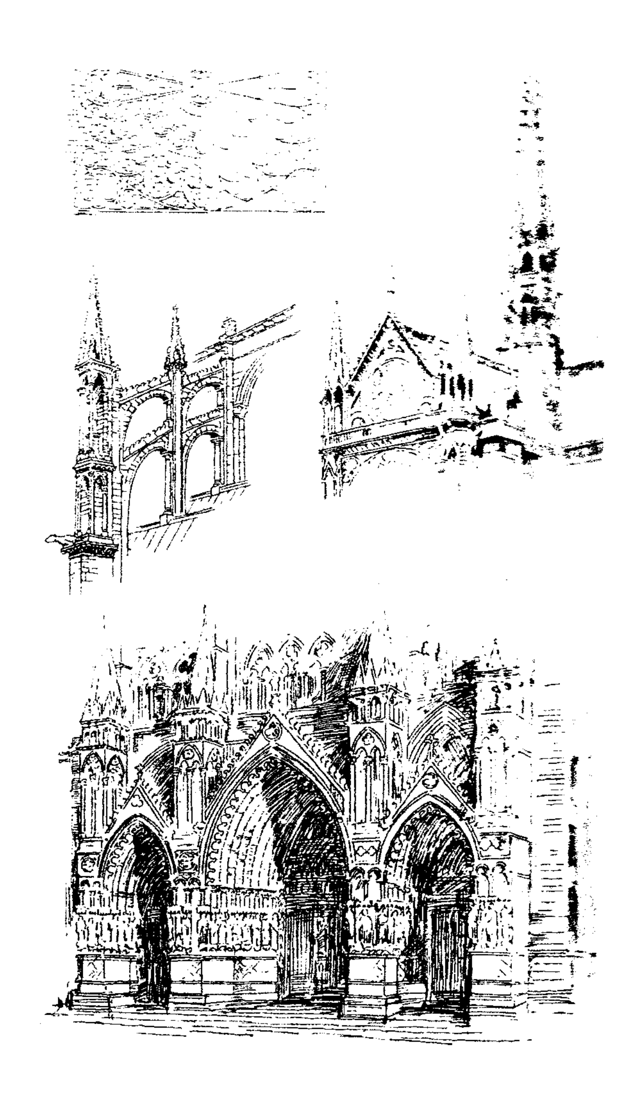


وردة نوتردام في باريس

سهم نوتردام في باريس

سهم كاتدرائية ريمس

مداخل كاتدرائية اميان Amiens



تماثيل لرسل المسيح (1210) في كاتدرائية شارتر



الفهرس

القسم الأول
المسيحية في عنفوانها
(1096 - 1350)

القسم الثّاني
النهضة العلمية والفنية في الدول الأوروبية
(1300– 1095)

